

الحمد لله. والصلاة والسلام على صاحب الخلق العظيم، والأدب القويم، سيدنا محمد وآله وصحبه



آداب العلم والتعلم

لمعات ودمعات

من المعلوم - بدهاءة- أن الآداب الإسلامية غطت كل مرافق الحياة، وتصحب المسلم في جميع حركاته وسكناته..، ولا سيما في باب العلم والتعلم. وأحوج الناس إلى الأدب والذوق - بلا شك - هم أهل العلم الشرعي؛ بل ينبغي أن يكونوا **"..أكمل الناس أدبا، وأشد الخلق تواضعا، وأعظمهم نزاهة وتدينا، وأقلهم طيشا وغضبا؛ لدوام قزع أسماعهم بالأخبار المشتملة على أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وآدابه.."** كما قال الإمام الخطيب البغدادي¹.

وقال الإمام ابن القيم: **"فليس صاحب العلم والفتيا إلى شيء أحوج منه إلى الحلم والسكينة والوقار؛ فإنها كسوة علمه وجماله، وإذا فقدها كان علمه كالبدن العاري من اللباس.."**²

وإنك لا تكاد تدخل اليوم مسجدا، أو معهدا، أو مدرسة، أو جامعة، أو مَقْرَأة، في الشرق أو الغرب، إلا وتجد فيها - مع الأسف- من يشكو مُرَّ الشكوى من أخلاق المتعلمين والمعلمين، وانصراف جَمهرة الناس إلى العلم المجرد، والطلب الجاف، الذي لا يزكي نفسا، ولا يرفع بهُدى الله رأسا!. وكأنَّ العلم - في تصور بعض الناس - هو غاية الغايات، ومناطق المناطات، أو كأن المقصود منه هو: "الوظيف والريغف!!" - بتعبير أحد الأعلام-، وهذا تصور مغلوط، وفهم سقيم.. يؤدي إلى فساد العلم والعمل، والدين والدنيا، ويُنتج لنا - مع الأسف- جيلاً فاسدا، كاسدا.. لا يصلح لعادة ولا لعبادة - بتعبير الفقهاء-. ومن تَمَّ كانت - إخوتي- هذه **"الإسعافات الأولية"**³، والموضات التربوية.. التي نرجو الله تمامها ونضحها، ونفعها وقبُولها!! وهي تذكرة لنفسي

¹ الجامع لأدب الراوي والسامع ج1ص:78 نقلا عن كتاب "حرمة العلم" للدكتور المقدم.

² إعلام الموقعين ص204 .

³ والإسعافات الأولية - كما قال أهل الطب-: هي رعاية وعناية أولية وفورية ومؤقتة للجروح أو نوبات المرض المفاجئة حتى يتم تلقي الرعاية الطبية المتخصصة .

ويتم اللجوء إلى الإسعافات الأولية إما :

-لتعذر وجود الطبيب وذلك بالنسبة للحالات الحرجة .

-أو عندما تكون الإصابة أو نوبة المرض ثانوية لا تحتاج للتدخل الطبي .

الهدف من تقديم الإسعافات الأولية:

-الحد من تداعيات الجرح أو الإعاقه . تدعيم الحياة في الحالات الحرجة.

-تنمية روح العون والمساعدة في الآخرين

-فالشخص الذي يقوم بتقديم الإسعافات الأولية هو شخص عادي لا يشترط أن يكون في مجال الطب وإنما توافر لديه المعلومات التي تمكنه من إنقاذ حياة المريض

أو المصاب. نقلا عن "موقع الباحث" بتصرف.

—المغرورة— في حق أساتذتي وسادتي، ثم لمن شاء الله له النظر فيها..، تصحيحاً وتنقيحاً، وتعقيباً وتعليقاً..؛ ابتغاء الخير، لا غير.

ورحم الله امرئاً أهدي إلينا عيوننا بعلم وعدل، أو نظر إلينا بعين الوداد فصبر وعَفِر!.
ولنبداً—إخوتي— بهذا الأدب الرفيع (أدبِ المجالسة)؛ لأهميته الاستثنائية في القرآن والسنة، ولنتدبر مثلاً— قوله تعالى: " **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه...**"⁴ " **يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجلس فافسحوا يفسح الله لكم، وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات...**"⁵. فمن حفظ آداب المجالسة والمدارس⁶ كان— بعون الله— لما سواها أحفظ، ومن جالس العلماء بأدب، ودارسهم بصدق؛ فاز بصحبتهم، ونال محبتهم، واقتبس من أخلاقهم وأذواقهم، وأشرقت عليه أنوارهم وأسرارهم..! أكرمنا الله وإياكم بذلك، بمنه ورحمته.!!
ومن أقوال المريين: " **أول الاستقامة صحبة العلماء بالله عزوجل**"⁷ وقال رجل من آل محمد صلى الله عليه وسلم: " **محادثة العالم على المزابل خير من محادثة الجاهل على الزرابي**!!" وقال العالم بالله، سهل التستري: " **من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء فليُنظر إلى مجالس العلماء**"⁸.

وليس بيننا وبين التأدب مع علمائنا— أيها السادة— إلا النية الصادقة، والصحبة الصالحة، والمجاهدة الدائمة⁹، وتوفيق الله تعالى أولاً وأخيراً.. فيارب توفيقك!! يارب يارب!!!

⁴ سورة النور آية 62. برواية ورش عن نافع.

يقول المفسر عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله: " **المؤمن بالله ورسوله حقاً، لا يذهب لأمر من الأمور، ولا يرجع لأهله، ولا يذهب لبعض الخواص، التي يشذ بها عنهم، إلا بإذن من الرسول، أو نائبه من بعده، فجعل موجب الإيمان عدم الذهاب إلا بإذن، ومدحهم على فعلهم هذا وأدبهم مع رسوله، وولي الأمر منهم؛ فقال: "إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله".** "تيسير الكريم المنان في تفسير كلام المنان" ص: 555.

⁵ سورة المجادلة آية: 10. برواية ورش عن نافع.

⁶ ولا يُستثنى من مجالس العلم— بطبيعة الحال— فصول المدارس النظامية، ومدارجات الجامعة، وقاعات المحاضرات... فالعلم يُحترم لذاته، أيا كان المكان، والزمان، والعنوان.. وليس هناك— لمن تبصر— فصل بين علم الدنيا وعلم الدين، فكل العلوم النافعة هي من علوم الدين، سواء كانت علوم شريعة، أم علوم طبيعة.

⁷ وليس أضرّ على المتعلم من مجالسة العالم بالأحكام، الجاهل برب الأحكام، وعلامة ذلك تركيزه على الحلال والحرام، ودقائق الفقهاء، وزهده في الرهديات، (الرقائق) وإغفاله الكلام عن الله تعالى، وأسمائه، وصفاته، ولقائه. ولا يكون العالم عالماً—على الحقيقة— إلا إذا جمع بين العلم بالله، والعلم بأحكام الله، والعلم بواقع الناس، ومثل هذا قليل؛ بل أقل من القليل.!!

⁸ مفتاح دار السعادة لابن القيم ص: 129.

⁹ بعض الناس يقلل من أهمية المجاهدة والترويض، ويرى أن الأخلاق كلها وهبية، جيّبة، لا يد للمخلوق فيها، ويعبر بعض العوام عن هذا المعنى بقولهم: "المتري من عند ربّي!!"، أو "تتبدل الجبال، ولا تتبدل الطابع!!"، وقال الشاعر القديم:

وما هذه الأخلاق إلا غرائز فمهن محمود ومنهن مذمّم
ولن يستطيع الدهر تغيير حلقة بنصح ولا يستطيع مكرم

والحق أن الآداب نوعان: كسبي ووهبي، "وإلا لبطلت فائدة المواظ والوصايا والوعد والوعيد، والأمر والنهي..." (كما قال الإمام الأصفهاني في "الذريعة إلى مكارم الشريعة" ص: 98)، فالتكليف لا يكون— شرعاً— إلا بمقدور وميسور، ولا تكليف بمستحيل، كما قال تعالى: "لا يكلف الله نفساً إلا وسعها" سورة البقرة. آية 286. وفي الحديث: "إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم..". رواه الخطيب، انظر "السلسلة الصحيحة" (ص: 342).

ووزن تفعل— عند أهل اللغة— يكون— في الغالب— للتكلف والمطاوعة، نحو: تعظّم، وتكبر، أي: تكلف مظاهر العظمة والكبرياء. والمقصود هنا أن الحلم (بمعنى الأناة، وضبط النفس عند الاستفزاز) يأتي بالتحلم، أي: تكلف هذا الحلم ابتداءً، والتعود عليه، والتدريج في طلبه؛ حتى يصير خلقاً ثابتاً. وقس على الحلم—مثلاً— الكرم

الأدب قبل الطلب (كلام في الصميم)¹⁰

يقول الإمام الفقيه، الفيلسوف ابن حزم في (مداواة النفوس) : " إذا حضرت مجلس العلم، فلا يَكُنْ حضورك - إلا حضور مستفيد، مستزيدٍ علمًا وأجرًا، لا حضور مستغفٍ بما عندك، طالبًا عثرة تشنّعها أو غريبة تشيّعها ، فهذه أفعال الأراذل الذين لا يُفْلِحون في العلم أبدا"¹¹ ويقول الفقيه المري، العلامة الشيخ زروق :

"من الناس من يحضر الميعاد(ميعاد العلماء) وقلبه لاه، فلا ينتفع به حسا ولا معنى، ومن يحضره للمكابرة والمناظرة والمظاهرة، فلا يزيده ذلك إلا خسارانا؛ لأنه إن رأى من أصحابه حسنة سدّها، وإن سمع ما يستعين به على أغراضه الفاسدة حفظه، وإن سمع ما يُفحم به خصمه ضبطه، ويريد إحضار حجة غيره ولو بالباطل، وربما سمع الكلام

الذي يأتي أيضا بالتكلم، أي: بتكلم العطاء، شيئا فشيئا، وكذا التأدب مع الأكابر، الذي يأتي تكلفا، وتطبعا، ثم يصيرُ طبعا، وعادة راسخة في النفس، يصعب تركها.

وإذا كانت السباع والضباع الوحشية تتعلم بالترويض، و"تُنْقَلُ بالعادة إلى التأنس" - حسب تعبير الأصفهاني في الذريعة - فما بالكم بالإنسان، الذي ميزه الله بالعقل والتفكير، وهده النجدين؟! "قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها" (سورة الشمس. آية 9-10).

وليس-والله- أنفع من الترويض في الصغر، حينما يكون العود طريا، والاستعداد قويا..وأما بعد اشتداد العود، وبلوغ الكبر؛ فالأمر متعسر(لا متعذر)؛ لرسوخ العادة، وتمكُّن الطبع، وكثرة العوائق...، وبالله تعالى نستعين.

= فيأيتها الصغیر، اغتم شبابك قبل هرمك ! تخلّص الآن الآن من طغيان النفس وطغواها، وامنعها من فجورها بتقواها !! واذكر قوله تعالى " قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها" إياك والتواني والتهاون؛ فإن العادة طبيعة ثانية !! -كما قيل-.

وقد تأمل المرتون قديما وحديثا أسباب الغرور وبواعثه؛ فوجدوا أن من أبرز أسبابه النشأة الأولى؛ ، وذلك أن الصبي يترى بين أحضان أبوين، عاطفيين، يُسرفان في المدح والثناء، ويُبالغان في التشجيع؛ فيُلقي في روع الولد المسكين أنه وحيد عصره، وفريد دهره، ثم يكبر معه هذا الشعور، ويرسُخ فيه الغرور، إلى أن يصير جزءا من شخصيته! أو لربما انتقلت العدوى(عدوى الغرور) إلى الولد عن طريق أبيه أو أمه؛ بسبب تضخم "الأنا" عند أحدهما أو كليهما-عافانا الله-، فليتبته المربون والمربيات إلى هذا؛ فإن فساد الوالدين فساد للبلاد والعباد. كما قال القائل: "إذا فسد القوالم عمّ الفساد جميع الأقسام" وقال الحارث المحاسبي -رحمه الله- : لا يصلح عبد إلا أصلح الله بصلاحه سواه ، ولا يفسد عبد إلا أفسد الله بفساده غيره" . والمعصوم من عصمه الله .

ولا يُخرِج العبد من سوء الخلق إلى حسن الخلق- بإذن الله - إلا التعامل الجاد مع كتاب الله تعالى، تلاوة وحفظا، وتدبرا، باعتبار أن القرآن - بطبيعته- كتاب هداية وشفاء، وتطهير وتنوير، وتربية وتقويم "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم" سورة الإسراء . ورحم الله الإمام المفسر ابن باديس الصنهاجي القائل: " فوالله الذي لا إله إلا هو ما رأيت -وأنا ذو النفس الملامى بالذنوب والعيوب- أعظم لإلانة للقلب، واستدرارا للدمع، وإحضارا للخشية ، وأبعث على التوبة من تلاوة القرآن، وسماع القرآن !!." (محال التذكير من كلام العليم الخبير(ص: 46).⁹

¹⁰ بعد تقييد هذه الكلام، قلت لنفسي-قبل أن يقول لي غيري-: لعلك يا هذا قد بالغت وغاليت!! أما علمت أن الزمان غير الزمان، والمكان غير المكان،... ؟ فلما سألت الشباب، واطلعت على النظام الداخلي لبعض الثانويات والإعداديات - هنا بفرنسا- وجدت من دقائق الآداب والأذواق ما لم يخطر ببال !! ومن ذلك أنه يُمنع مضغ العلك في الثانوية والإعدادية،... وتؤكد لي بالبرهان أن أقرب التلاميذ إلى المعلمين والمعلمات هنا أحاسنهم أخلاقا، وليس أذكاهم وأعلمهم. وبالمناسبة، أذكر أني قد نصحت -قديما- بعض أبنائنا(في فرنسا) بتوقير معلمهم ومربيهم، أيا كانوا، تعبدا لله تعالى؛ ففعلوا ذلك -والحمد لله- على الوجه الأكمل، ومنهم بُنَيَّةٌ فاضلة، شريفة، رضي الله عنها ! فلما سألتها عن الآثار والثمار؛ قالت: لقد حصلت - بحمد الله- على درجة التهنئة؛ مكافأة على حسن السيرة، (حسن السلوك)، مع جائزة تقديرية، تسمى ب: "prime de mérite" وقدرها: (800 euros)، فأجبتها: هذا -يابنيتي- أجر الدنيا "ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون" سورة العنكبوت. فياليت قومي يعلمون !!

¹¹ مجموع رسائل ابن حزم. ص 411.

من غيره في تحرير فهم أو إفادة حكمة فسبقه إلى إكماله، وأضافه إلى نفسه، فكان سارقا ومطفئا بإدعاء فضيلة الغير لنفسه.

والإستقامة في حضور المجالس بثلاثة أمور:

أحدهما: أن يكون التحصيل أهم إليه من التوصيل.

الثاني: أن تكون السلامة أحب إليه من الرئاسة.

الثالث: أن يلزم الأدب في حق نفسه وحق رفاقه بوجه تام، و ذلك يقضي له بالصمت

والإنصاف وعدم التظاهر و الإنحراف، وأين من هذا وصفه؟ رزقنا الله العافية بمنه.

فأما أصحاب المجالس فمن كان الصمت أهم عليه من الكلام، فقد نجح، ومن كان الكلام أهم عليه من الصمت

فقد هلك، وإذا كانت همة العالم في اتباع السنة ووجود الإنصاف في الإفادة نفع وانتفع، وإلا على العكس، وقد

تكلم ابن الحاج على مجالس العلم بأتم الكلام، وذكر أمورا لا أستحضرها الآن، و الحق أبلج و الباطل لجلج.

ومن آفات بعض العوام والمستمعين، أنهم إذا فرغوا من المجلس جلسوا لمذاكرة ما سمعوا، ثم ختموه بالغيبة وذكر

عيوب الناس وأحوال الملوك ووقائع الأراجيف، وكذا كثير من الطلبة، ومن هناك قال من قال إن الغيبة هي فاكهة

القرء، فليكن الأهم على المُجالس لهم التحرز من أعقاب المَجَالِس، وبالله التوفيق".¹²

إيقاظات وإشارات¹³

إياك والجلوس بين يدي العالم المعلم ، جلسة تُلوك فيها علكا¹⁴ ، أو تخلل فيها سنا¹⁵ ، أو تقلم فيها ظفرا، أو

تلهي بهاتف نقال¹⁶ ، أو بحاسب (جوال)، أو بفرقة الأصابع، أو بتحريك السبحة، أو تكثر فيها من الالتفات،

¹² عدة المرید الصادق أحمد زروق ص: 300-301.

¹³ بعد تقييد هذه الكلام، قلت لنفسي-قبل أن يقول لي غيري-: لعلك يا هذا قد بالغت وغاليت!! أما علمت أن الزمان غير الزمان، والمكان غير المكان،... ؟ فلما سألت الشباب، واطلعت على النظام الداخلي لبعض الثانويات والإعداديات - هنا بفرنسا- وجدت من دقائق الآداب والأذواق لم يخطر ببال !! ومن ذلك أنه يُمنع مضغ العلك في الثانوية والإعدادية،... وتؤكد لي بالبرهان أن أقرب التلاميذ إلى المعلمين والمعلمات هنا أحاسنهم أخلاقا، وليس أذكاهم وأعلمهم. وبالمناسبة، أذكر أنني قد نصحت -قديما- بعض أبنائنا(في فرنسا) بتوقير معلمهم ومربيهم، أيا كانوا، تعبدوا لله تعالى؛ ففعلوا ذلك -والحمد لله- على الوجه الأكمل، ومنهم بُنِيَّةٌ فاضلة، شريفة، رضي الله عنها ! فلما سألتها عن الآثار والثمار؛ قالت: لقد حصلت - بحمد الله- على درجة التهنئة؛ مكافأة على حسن السيرة، (حسن السلوك)، مع جائزة تقديرية، تسمى ب: "prime de mérite" وقدرها: 800 (euros)، فأجبتها: هذا -يا بُنِيَّة- أجر الدنيا "ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون" سورة العنكبوت. فياليت قومي يعلمون !!

¹⁴ علك، واحده علكة، وهو اللبان، أو ما يسمى في المغرب العربي بالمسكة، أو الشوينكوم، أو (لاشيء!)، وهو طعام مباح - إن جاز تسميته طعاما- إلا أنه لا يليق مضغه في كل مكان، وأمام كل إنسان. وخصوصا أمام الأفاضل، وفي مجالس العلم، ومراعاة الأذواق شيء مغروس في الطباع والنفوس، لا يحتاج إلى دروس.

¹⁵ أما التسوك أمام الناس؛ فمذهب إمامنا مالك -رحمه الله- كراهية الاستيكا في المسجد؛ لأنه من باب إزالة القاذورات، ولأنه ينافي المروءة ، (انظر مواهب الجليل لشرح مختصر خليل . ج2ص:463) .

وأجاز كثير من الأئمة الاستيكا في المسجد، وأمام الناس؛ على أن لا يُبالغ فيه إلى درجة التقايع؛ خشية أن يخرج منه شيء يلوث المسجد، (انظر فتاوى اللجنة الدائمة ج5ص: 109) . والحكمة وضع الشيء في محله، وتطبيق السنة بمنهج السنة. وبالله التوفيق.

والتنحنج، والتنخم¹⁷، والثاؤب، والتجشؤ¹⁸، والتمايل، والطرب، والنهاق، والزعيق، والزفير، والقهقهة (المبظلة للوضوء عند الحنفية)¹⁹! والقيل والقال، أو تتكئ فيها وتمطى، واضعا رجلا على رجل، ويذا على خصر، فمن تعمد هذا وتعوده فهو في حُسر²⁰. وقد ورد في السير أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يجلسون عند رسول الله، وكان على رؤوسهم الطير²¹، ولا شك أن العلماء ورثة رسول الله، يجب توقيهم وتقديرهم، وعدم المبالغة في الانبساط بحضرتهم. يقول الشافعي رحمه الله - تلميذ مالك بن أنس - : **" كنت أتصفح الورقة بين يدي مالك رحمه الله صفحا رقيقا هيبه له، لئلا يسمع وقعها"**²². وقال الربيع: **" والله ما اجتأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلي هيبه له"**²³.

¹⁶ الهاتف النقال (téléphone portable) من نعم الله علينا في هذا الزمان، إن أحسنًا استعماله. ومن الأدب توقيفه في مجالس العلم، أو على الأقل جعله في وضع الاستقبال الصامت. (mode silencieux)

¹⁷ التنخم الكثير دال على علة بدنية - كما يقول أهل الطب - نسأل الله العافية للجميع! وكل ما يُطلب من الإنسان أن لا يؤدي أحاه الإنسان بإخراج النخامة أمامه، ولا سيما عند حضور الأكل، أو في مجالس العلم،. وأسوأ من ذلك رمي النخامة في الطريق، دون حياء - كما يفعل بعض الدهماء - . وخير مكان للتطهر والتنظف - بلا شك - هو محلات الوضوء والغسل، لا غير. وأضعف الإيمان استعمال المناديل - عند الحاجة - وهي متيسرة - والحمد لله - في هذه الأزمان ، بأجس الأثمان.

والعجب أن سنغافورة الآسيوية، بلاد بوزية وثنية، ولا يحفظ أهلها أحاديث الأدب؛ ومع ذلك فهي رائدة في الأناقة، وما أن تصل إلى مطاها الدولي؛ حتى ترى لافتات وملصقات هنا وهناك، تُذكرك بالنظام، والهدوء، والنظافة،.. وأبرزها: مُلصق كبير يمنع " البصق في الأماكن العامة"، وآخر يمنع " اللبان" أو العلكة، (الشوينكوم).!! ولو رميت هناك علكة أو ورقة في الشارع؛ لقامت عليك القيامة، واشتدت عليك الملامة، مع أداء غرامة!. فيا ليت قومي يعتبرون!!

¹⁸ الجشاء هو: خروج الهواء بصوت من المعدة عن طريق الفم عند حصول الشبع، ويسمى عند المشاركة ب"التترية"، وعند المغاربة ب"التكرية". وهو أمر مستهجن (قبيح) جدا جدا عند الغربيين، (ولا سيما أثناء الأكل)!!، فإذا صدر هذا عن إنسان قدوة فتلك هي الفتنة بعينها! وعليه، فمن غلبه شيء من هذا بحضرة غيره فليضع -على الأقل- يده على فمه، أو ليستعمل مناديل.

وقد ورد في الحديث ، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: تجشأ رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (كُفَّ عنا جشاءك فإن أكثرهم شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة) سنن الترمذي (2478)، قال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه، (انظر صحيح الجامع الصغير). وجاء في تحفة الأحوذى: "قوله: (كُفَّ عنا) أمر مخاطب من الكف، بمعنى الصرف والدفع".

¹⁹ كثرة الضحك إلى حد الإسفاف خفة وصبيانية، ودليل على عدم الجدية، وقلمًا يُفْلح المازلون. وقد رأى الفضيل بن عياض رحمه الله بعض طلبة الحديث يرحون ويضحكون في الحلقة؛ فناداهم: " مهلا يا ورثة الأنبياء ، مهلا، مهلا، إنكم أئمة يقتدى بكم" سير أعلام النبلاء ج 8 ص: 435.

وقد عاتب أحد الأساتيد تلميذه على المبالغة في الضحك ؛ فرد التلميذ قائلا: ألم يقل الله تعالى " وأنه هو أضحك وأبكى" (سورة النجم) فأعرض عنه الأستاذ - تأديبا- وقال له: " فإِنَّكَ إِذْن!"

وهذا لا يعني أيضا أن يكون المتعلم مُقَطَّبَ الجبين، عبوس الوجه، متوتر الأعصاب؛ بل المقصود التوسط والاعتدال، ومراعاة الحال.

²⁰ وذكر بعض المصنفين في آداب العلم أن أحد القراء الكبار امتنع عن إقراء أحد طلابه؛ بسبب هيئته في الجلوس، وقال له: " حاجتك إلى الأدب أكثر من حاجتك إلى العلم الذي تطلبه".

²¹ كناية عن شدة السكون والسكوت؛ لأن الطير لا تنزل على متحرك.

²² شرح مقدمة المجموع للنووي ص: 137

²³ المرجع السابق.

شؤم الوقعة في العلماء

احذر - أيها الحبيب - الوقعة في علماء الشريعة، بدعوى أنهم ليسوا مقدسين، أو معصومين، أو أننا جميعا أبناء تسعة أشهر...، أو ما أشبه ذلك من حجج واهية، وأعدار باردة، يسوقها الساحرون. **"فلحومهم [وَأَيُّنُ اللَّهِ] مسمومة²⁴، وعادة الله في انتهاك حرمتهم معلومة، ومن أطلق لسانه فيهم بالعبث والتلب، ابتلاه الله بموت القلب"** - كما قال العالم القدوة، أبو القاسم ابن عساكر - رحمه الله - ²⁵ وروي عن الإمام أحمد أنه قال: **لحوم العلماء مسمومة، من شتمها مرض، ومن أكلها مات²⁶**، وهذا من الكلام الذي برهانه وجوده، ودليله وقوعه على حد تعبير أحد الأعلام - رحمه الله -. وإنما يكون دفاع الله على العبد بقدر إيمانه، كما قال المفسر الفقيه السعدي في قوله تعالى: **"إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا"** ²⁷ أي: كلما قوي الإيمان قوي المدد، ونال العبد معية المولى النصير، والعكس بالعكس. وتأمل هذا - إن شئت - في قوله تعالى: **"إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ"** ²⁸ ولا تقيس - يا أخي - أستاذا بأستاذا، ومعلما بمعلم، فإن الذي يعلمك احتسابا - دون مقابل مادي أو معنوي - غير الذي يعلمك للوظيفة والمال، والشهرة والجاه، وإن دعوة المظلوم - أيا كان - ليس بينها وبين الله حجاب؛ فكيف إذا كان عالما تقيا، وصالحا وليا ²⁹ !! فتدبر هذا يرحمك الله !!.

وقال أحد الصالحين: " كفى بالمرء شرا أن لا يكون صالحا وهو يقع في الصالحين " ³⁰.

وَرُوِيَ أَنَّ رَجُلًا أَكْثَرَ مِنَ الْوَقِيعَةِ فِي وَلِيِّ الْعُلَمَاءِ وَعَالِمِ الْأَوْلِيَاءِ، الْإِمَامِ يَحْيَى النَّوَوِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَشُوْهُدَ (الرَّجُلُ) عِنْدَ وَفَاتِهِ، وَقَدْ اَنْدَلَعَ لِسَانُهُ ³¹ !! فكان عبرة للمعتبرين ³².

²⁴ وهذا لا يعني أن لحوم غير العلماء لذيدة، ومستباحة، ولا حرمة لها، فالأذى حرام، والظلم حرام، للخاص والعام، إلا أن الوقع في أعراض العلماء أشد خطرا.

²⁵ انظر: كذب المفتري لابن عساكر ص: 29

²⁶ حرمة أهل العلم للمقدم ص: 3230

²⁷ سورة الحج الآية: 38

²⁸ سورة النحل الآية: 128

²⁹ فكيف إذا كان من أهل البيت، (الأشراف والسادات، والعترة النبوية الطاهرة) !!، فحينئذ ينبغي زيادة البر، ومضاعفة الحذر، لقوله صلى الله عليه وسلم "لا

يُغَضُّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ أَحَدٌ إِلَّا ادْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ!". رواه ابن حبان، والحاكم، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي ورجاله ثقات.

وجاء عن الخليفة الصديق رضي الله عنه: " ارقبوا محمدا في آل بيته" رواه البخاري. أي: احفظوه فيهم، ولا تؤذوهم، ولا تسيؤوا إليهم.

وقال أيضا: "والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله أحب إلي أن أصل من قرابتي" رواه البخاري ومسلم.

والعجيب أن بعض "المتدينين" يسخرون من موضوع النسب والشرف، ويدوسون أهله..، ويعجبون ممن يُقره ويعتبره..!! بدعوى أننا سنة لا شيعة، وينسون أن حقوق الصحابة وآل البيت مؤصلة بالشرع، ولا علاقة لها بتستن، أو تشيع، أو رفض أو نصب...، أو أي شيء آخر يخطر بالبال. "ومن الطبيعي أن يجب المرء كل ما من يدلي بسبب إلى من يجب... وأهل الحق يحبون آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يحبون أصحابه وأولياءه... لكن ذلك في إطار عام من الجمع بين النصوص، وإقامة موازين الإسلام العامة..." كما قال الدكتور المفكر عبد الكريم بكار، في كتابه النفيس " فصول في التفكير " ص: 190..

ولقد رأيت شيوخا يعظمون الأشراف، دون إسفاف؛ ولكن - والحق يقال - ما رأيت عيني - في هذا التعظيم - مثل العلامة الفقيه، الدكتور عبد الله بن بية ! فإنه -

أعلى الله قدره - يرثب سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم - حقيقة - في آل بيته، ويكرمهم، ويجلهم، ويدنهم..، وهو في غاية السعادة والنشوة!!

ورأيت - حفظه الله - يقدم لقب "الشريف" على لقب الأستاذ، والدكتور، والشيخ، ...، وهو العالم العلم، و"المثقف" الوزير، الذي سارت بذكره الركبان، وعز

نظيره في هذا الزمان.

³⁰ شعب الإيمان ج5 ص: 316.

³¹ أي خرج من فمه، واسترخى، وسقط على العنققة، في صورة بشعة، والعباذ بالله !!

وكان الإمام محمد بن إسماعيل البخاري - كما هو معلوم - خادما للعلوم النبوية، لا يطمع في رئاسة ولا إمارة؛ فغار منه ولاة خراسان، وحاولوا صرف قلوب الناس عنه بتهمة مُزوّرة!. ولما اضطرت المدينة (بخارى)؛ بسبب الشائعة الباطلة؛ صدر أمر من والي الجائر خالد بن أحمد (حاكم خراسان) بإخراج البخاري من بلده؛ فاستعظم البخاري هذا الجور، ونفذ صبره، ودعا الله عزوجل أثناء هجرته قائلا: **"اللهم أرهم ما قصدوني به في أنفسهم وأولادهم وأهاليهم!"** ولم تمض أيام حتى كان والي (خالد) في السجن، وأعوانه في الشتات والهوان، وكانت آية من آيات الله الباهرة، زادت الناس إيمانا وتسلينا!!³³.

وقال الإمام الحافظ أبو العباس الحسن بن سفيان لمن أثقل عليه، وآذاه، واحتقره: "ما هذا؟ لقد احتملتك وأنا ابن تسعين سنة؛ فأتق الله في المشايخ، فلربما استجيبت فيك دعوة"³⁴.

وجاء في كتب السير والتراجم: أن رجلا كلم العبد الصالح مالك بن دينار، رضي الله عنه، بحضرة أصحابه العلماء والعباد؛ فأغلظ له في القول، وظلمه، واتهمه؛ فبكى مالك! ولا زال يبكي ويبكي! والرجل يُغْلِظُ له!. فلما بالغ الرجل في إساءته؛ رفع حبيب العجمي (زاهد البصرة وعالمها) كفيه إلى السماء، ثم قال: **"اللهم إن هذا قد شغلنا عن ذكرك؛ فأرحنا منه كيف شئت!"** فسقط الرجل على وجهه ميتا³⁵.

والأمثلة في هذا الباب كثيرة ومتواترة، رواها الأثبات عن الأثبات، والثقات عن الثقات، ورأينا - والله الذي لا إله غيره! - كثيرا منها رأي العين، ولمسناها لمس اليد! هنا، وهناك، وهنالك! ونشهد أن وعد الله حق، وأن كلامه صدق!! ولا ننصح أحدا بالتجربة، لا لا. ألم يقل ربنا عزوجل في حديث الولي المشهور: **"مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالْحَرْبِ"**³⁶ أي: فقد أعلمته بأني محارب له!!.

يقول الإمام العابد الحسن البصري - رحمه الله - معلقا على هذا الحديث: **"ابن آدم، هل بمحاربة الله من طاقة؟!"**.

³² الدرر الكامنة ج 4 ص: 106 .

³³ . انظر مقدمة فتح الباري ص: 493 وسيرة البخاري، للمباركفوري ص 102.

ولا زال الإمام البخاري - رحمه الله - يُؤذى من طرف الحساد، أينما حل وارتحل؛ حتى ضعفت قواه، ولم تحمله رجلاه، وعندئذ دعا قائلا: "اللهم قد ضاقت علي الأرض بما رحبت فاقبضني إليك!"، فما تم الشهر حتى قبضه الله! وكانت وفاته ليلة عيد الفطر، ودُفن يوم عيد الفطر سنة 256 هجرية. (سيرة البخاري للمباركفوري ص: 103).

³⁴ سير أعلام النبلاء ج 14 ص: 159.

³⁵ كما جاء في كتاب مجابي الدعوة لأبي بكر بن أبي الدنيا.

³⁶ رواه البخاري من حديث أبي هريرة، وقد قيل: إِنَّهُ أَشْرَفُ حَدِيثٍ رُوِيَ فِي ذِكْرِ الْأَوْلِيَاءِ ..

يقول ابن القيم في مفتاح دار السعادة ج 1 ص: 66: "ورثة الأنبياء هم سادات أولياء الله عزوجل".

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني؛ محذرا من أذية أهل الله وخاصته: "يا جاهلا بالله عزوجل وبخواصه!
لا تذق طعم غيبتهم، فإنها سم قاتل، إياك ثم إياك ثم إياك أن تتعرض لهم بسوء، فإن لهم من يغار
عليهم!!" 37

والمؤسف المخجل أن بعض "المتدينين" من أصحاب "عقلية البعد الواحد" 38 وقعوا في هذه الوقعة،
وسقطوا في وحل الخديعة 39!! ونعبيذك بالله يا ابن عم، أن تُلطِّخ لسانك الطاهر بنكتة، أو رواية،
أو إشاعة، تنال بها من شرف أشرف الأمة، وأوعية القرآن والسنة؛ حتى - وإن زلوا أحيانا -
سدا للذريعة، وحماية للشريعة. فالطعن في الحامل طعن في المحمول، والمساس بالرموز الدينية - أيا
كانت - مساسٌ بالدين نفسه، وباب عظيم من أبواب الشر والفتنة. و "للسائل حكم المقاصد"
كما يقول أهل الأصول، فمتى أفضت الوسيلة لحرم، فإنها تحرم تبعاً لأثرها وما ينتج عنها.

● والعلماء الربانيون، والشيوخ القرآنيون، يسلكون مع الناس مسلك الأخوة الواسع الفسيح، ولا يدعون
عليهم ولاية، ولا مشيخة 40، ولا كرامة، ولا عصمة، ويدعون بالسلامة والعافية للمؤلف والمخالف،

37 الفتح الرباني ص: 93

38 عقلية البعد الواحد- عند الفلاسفة- تعني العقلية السطحية، التي تنظر إلى جانب واحد في الظاهرة المتعددة الجوانب والأبعاد، والأسباب والعناصر.
39 ومن ذلك نعتهم للعلماء بأنهم إكلبروس، أو فاتيكان المسلمين!، أو فقهاء الحيض والنفاس، أو دورات المياه، أو دعاة التيمم، أو الدراويش، أو أصحاب الكتب
"الصفراء"، أو أصحاب العمام المتخشبة، أو أصحاب الوعظ...!! وقد حُمل الفقهاء والقراء - أحيانا - مسؤولية تخلف العالم الإسلامي وإعاقة الوصول إلى
القمم...!! وهذا اعتساف وقلة إنصاف. فإن فقهاءنا وأئمتنا عاملون في ميدانهم، وإطار اختصاصهم، ولا يمنعون أحدا من الوصول إلى القمر، أو الشمس! أو
إلى كل ما خلق الله من كواكب ونجوم..! والأولى أن يتجه السؤال أو اللوم - إن كان ولا بد- إلى من يقفون على ثغور العلم التجريبي المادي، كالفلكيين
والفيزيائيين..-مثلا- مع اعترافنا - سلفا- بأن من طلاب العلم الشرعي -مع الأسف- من لا يفقه -حقيقةً- أمور الدين والدنيا، ويساهم من قريب أو من
بعيد في تشويه صورة العلم والعلماء، وفتاويه الشاذة، وأفكاره الهزيلة، وسلوكه المشين.

يقول العلامة المحدث محمد زكرياء الكاندهلوي رحمه الله "فالذي تجب مراعاته والعناية به هو أن لا يوصف أحد من العلماء بالسوء ما لم يتحقق أنه من أصحاب
السوء، فقد جاء في القرآن المجيد: "ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا" الإسراء 36...ولو افترضنا أن جميع هؤلاء
الذين نسبهم بالعلماء هم علماء سوء فلن ترتفع مسؤوليتكم كذلك بمجرد أن تقولوا إنهم علماء السوء؛ بل يكون حينئذ واجبا عليكم أن توجدوا علماء الرشده
والخير؛ لأن وجود العلماء فرض كفاية، إن فقدوا وقع الذنب على الجميع..". ثم قال -رحمه الله-: "وعلماء الرشده والخير لا تخلو نفوسهم من دواعي الطبيعة البشرية،
..والأخطاء والتقصيرات التي تصدر من العلماء إنما مسؤولياتها على أنفسهم، وهو أمر يتعلق بالله سبحانه وتعالى إن شاء أخذهم عليها، وإن شاء عفا عنهم
فيها..". انظر (فضائل الأعمال) تقدمت أبي الحسن الندوي ص: 46-47 بشيء من التصرف.

40 يقول العلامة الهندي، البروفسور أبو الحسن الندوي- يرحمه الله-: "إن التواضع وهضم النفس من خصائص رجال الله الخاصة، وهو المنصب الأعلى في الدين،
أفضل من ألف فضيلة وألف كرامة، ولا يبلغ الإنسان هذه المنزلة إلا أن تموت الأنانية، ويتركى قلبه من جميع الشوائب والعلائق "رجال الفكر والدعوة في الإسلام ج 2
ص 164. ومن الأقوال المروية عن نبي الله عيسى عليه السلام: "إذا جعلكم الناس رؤوسا فكونوا أذنانا". (تنبيه المغترين، للشعراني ص: 65).

وفي هذا المعنى يقول أيضا العلامة الورع، ابن الحاج العبدري الفاسي، رحمه الله، في كتابه الشهير (المدخل) ص" 67 ج 1: "وقع لي سؤال مع سيدي أبي محمد (الإمام
المحدث الورع، أبي محمد عبد الله بن أبي حمزة الأندلسي، شارح مختصر صحيح البخاري) لما جئت أريد أن أقرأ عليه فقال لي: أما تقرأ على العلماء؟ فقلت: أريد أن
أقرأ عليك؛ فقال لي: كيف ترك العلماء وتأتي تقرأ على مثلي؟ فقلت: أريد أن أقرأ عليك؛ فقال: استخر الله تعالى؛ فاستخرت الله تعالى، ثم جئت إليه فقلت: أقرأ؛
قال: عزمت؛ قلت: نعم؛ فقال لي: لا يحظر بخاطرك ولا يمرّ بك على عالم ولا أنك بين يدي شيخ، إنما نحن إخوان مجتمعون نتذاكر أشياء من أحكام الله
تعالى علينا فعلى أي لسان خلق الله الصواب والحق قبلناه وإن كان صبيبا من المكتب!!".

واسمع أيضا ما يقول عالم تركيا، الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله: "فأنا لست سوى أخ لكم لا غير، وليس في طريقي ادعاء الإرشاد والتوجيه، ولا
الأستاذية عليكم..." (من كليات رسائل النور (6) ص: 162).

والقريب والبعيد، ولا يجرحون أحدا- بلا بينة ولا ضرورة- فإذا جرحوه فإن جرحه سينزف- لا محالة- حتى يموت (موتا أدبياً ومعنوياً). نسأل الله المعافاة التامة من ذلك، بمنه ولطفه ⁴¹!!

- وبعض المنسوبين إلى العلم الشرعي- مع الأسف- يتكلمون في أقرانهم وشيوخهم، بحضرة تلاميذهم، وأولادهم، وأشياعهم، ويجرئونهم على القدح في الأئمة الفحول، والعلماء العدول.. وهذا لؤم وخسة، وعقوق وفسوق، والعياذ بالله.
- وقد جاء في كتاب "حرمة أهل العلم" للدكتور المقدم: أن أستاذا كان يُجَرِّئُ تلاميذه على الطعن في العلماء وإهانتهم. وذات يوم تكلم بكلام لم يُرُقْ أحد تلاميذه، فقام إليه فصفعه على رؤوس الأشهاد!
- قلت - عفا الله عني - : وصدق القائل: "كما تدين تدان"، أي: كما تفعلُ يُفعلُ بك، وكما تُجَازِي تُجَازَى. وهذه قاعدة جليلة، مطرّدة في جميع الأحوال، كما يدل الشرع والواقع، وشواهدنا في القرآن والسنة أكثر من أن تحصى، وأجل من أن تستقصى.
- ويُذكر ههنا - للعبرة- أن عامة الشيوخ والمعلمين الذين فرطوا في التزكية، وقدموا لتلاميذهم علوما بلا تربية، ومعارف بلا ذوق؛ شعروا بالألم، وحصدوا الندم!!
- وما أجهل قول الشاعر خالد بن عتبة الهذلي:

فلا تجزغن من سنّة أنت سيرتها فأول راض سنّة من يسيرها

وقال الإمام محفوظ الكلوزاني - رحمه الله- ⁴² مشيرا إلى أن الأدب مع العلماء حق ودين، إذا فرط فيه مفرط استوفى منه:

أنا شيخٌ وللمشايع بالآداب علمٌ يخفى على الشبان
فإذا ما ذكرتني فتأدّب فهو قرصٌ يُرَدُّ بالميزان

- وبعض المتعلمين- مع الأسف- يرفعون أنفسهم فوق السوق ⁴³- كما يقال- ويقومون أحيانا مقام المعلم والمتعلم، والمرابي والمتربي..- شعروا أم لم يشعروا-، وبيان ذلك: أنهم يقدمون لمعلميهم ومربيهم برامج ومناهج، وفكرًا وآراء، بأسلوب الفرض، لا بأسلوب العرض! وربما ذهبوا أبعد من ذلك في الجسارة والصفافة.. ولاكوا كلاما تمجّه الأسماع، وتنفر منه الطباع!. وهذه مفارقة عجيبة- والعجائب

وكان بعض الشيوخ (من أهل الرسوخ) يقول إذا مدح: "أنا طوّلب علم، أنا لست بذاك؛ ولكن الأمر كما قيل: "إن البغاث بأرضنا يستنسر!!".
⁴¹ ومن المعلوم أن عائق الشيوخ والمرين عندنا (في المغرب العربي) يوصف -عرفا- ب: "المقلّس" (أي المقلّس، الخاسر، الذي ساءت نيته وأعماله، وحرم الوصول).
نعوذ بالله تعالى من العقوق، وتضييع الحقوق!!
أما البار بالشيوخ والمرين: فيوصف ب "المتفتح عليه" أو "المسقي" أو "المنزّر" (وهو الذي أنار الله ظاهره بالأدب، وسقى باطنه بدعوات الشيخ المعلم)..!!
وليست هذه التعابير والأوصاف- أيها السادة- من قبيل "ثقافة الورق الأصفر!"، أو "لغة العجائز!" -كما يقول البعض- بل هي كلام صحيح مليح.. مؤصل بالشرع، مؤيد بالعقل، لمن تأمل النصوص، وتجرد من الهوى، وذاق حلاوة العلم والعلماء.
⁴² رسالة المسترشدين للمحاسبي، ص: 14.

⁴³ إشارة إلى المقولة المروية عن الشافعي رحمه الله: "لا ترفع سعرك فوق السوق فبردك الله إلى ثمنك".

جمة- تذكرنا ب"نظرية العزبة والحصان، وأيهما يجر الآخر؟" ولا سيما بعد انطلاق شبكة الإنترنت،
والفايسبوك، والتويتر،.. وتفجّر الثورة المعلوماتية! (بلا خيوط ناظمة أحياناً)، ولا أدلّ على ذلك من
هذا العنوان المثير "مشكلة الجدلية المضنية بين المعلم والتلميذ" الذي صدّر به الدكتور البوطي⁴⁴
فصول كتابه الرصين "وهذه مشكلاتنا".

يقول- سدد الله خطاه:- "علماء ولكن عليهم أن يتقيدوا في تعاملهم بعلومهم بالتعليمات التي يبصرهم بها هؤلاء
الناس، أليست هذه هي الجدلية المضنية والفتنة المستشرية؟ ولكن ما الحل؟".

إن الدكتور البوطي - حسب المكتوب- لا يرى أملاً كبيراً في عودة المتعلم إلى الصواب، ولا يتصور أبداً أن يعود
للعالم اعتباره وسؤدده، نظراً لابتعاد الأمة عن الآداب الإسلامية في جملتها، وتأثرها بعوائد وأفكار جديدة، قوامها
الهوى والأناية، والمادية والنفعية. ويظلّ الحل الواقعي في نظر الشيخ البوطي منوطاً بالطرف الآخر (أي بالعالم
المعلم)، وسبيل ذلك كما قال: "مراقبة الله عز وجل والإخلاص له.... ولكن أين ذكر الله؟ وأين مراقبته من حياة
أكثر المرشدين والدعاة إلى الله عز وجل؟ فضلاً عن العوام من الناس، إنه الجانب المنسي في حياة
الناس". "الحل أن يتبغى العالم في علمه وجه الله، وأن يناشد في مساعيه مرضاته فإذا هو متحرر من جاذبية
الأفلاك البشرية كلها مهما علّوا أو نزلوا..."⁴⁵

"...وليجعل أنيسه في هذه الرحلة حديث النبي صلى الله عليه و سلم فيما رواه الترمذي في حديث عائشة: "من
أرضى الناس بسخط الله وكنه الله إلى الناس ومن أسخط الناس برضى الله كفاه الله مؤونة الناس". "....وليعلم أن
من غاص في بحار التوحيد حُجب عن الناس وعن أطماعه فيهم؛ فهان عليه أن يهتم إلا برضى الله عز و جل...
فاللهم أسعدنا بشهود وحدانيتك حتى لا نرى في الكون سواك..."⁴⁶

وهكذا يضع الشيخ البوطي أيدي العلماء على مكامن الداء، وصيدلية الدواء. وإنه للحلّ الوحيد -فيما
يبدو- إذا أردنا للعلم انتشاراً، وللمساجد استقراراً، ولا سيما في البلاد الأوروبية، التي استشرى فيها داء الخلاف،
ولم تضع الحرب أوزارها بين المعلمين والمتعلمين، والأئمة والمأمومين!!

ثم يتابع الشيخ البوطي في نفس السياق قائلاً: "... فيا أحي طالب العلم، لو أتيت لأحدنا أن يجلس فيعلم نفسه
لاستراح و أراح، ولما برزت المشكلة التي أصبحت اليوم بحاجة إلى حل وهي : المعلم والتلميذ، أيهما التابع
والمتبوع؟.. ولكن سنة الله اقتضت حاجة الجاهل إلى العالم، ولا مفر من هذا التدبير الرباني. لا بد للإنسان من

⁴⁴ هو البروفسور، المعرّر، الشيخ محمد سعيد رمضان، الكردي الأصل، السوري النشأة والقرار، المولود بتركيا عام 1929 م.

من أشهر المرجعيات في العالم الإسلامي- كما هو معلوم- (وهو ابن العالم العامل، الشيخ ثلاً رمضان، رحمه الله). له مؤلفات وأبحاث عديدة، وحضور قوي في
المؤتمرات والندوات العالمية، والفضائيات العربية، وآراؤه ومواقفه واجتهاداته مُدوّنة في كتبه، وتسجيلاته، وموقعه الإلكتروني -لمن شاء الاطلاع عليها-، وله مواقفون
ومخالفون، ومحبون ومبغضون، كالعادة، "وليس أحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا ويؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر (النبي عليه الصلاة والسلام)"

كما روي عن إمامنا مالك بن أنس!!

⁴⁵ انظر كتاب " وهذه مشكلاتنا " ص : 23

⁴⁶ نفسه ص : 22

العلم، ولا بد من عملية التعليم من ركنين أساسيين: معلم ومتعلم، ولا بد أن يؤدي كل منهما ضريبة النظام الرباني في علاقة ما بين هذين الطرفين، فأما الطرف الأول، فسبيله أن يُخلص في عملية البيان والتعليم، وأن يوليّه الثاني في مقابل ذلك، كامل ثقته، ولا فرق في هذا بين أنواع العلوم. بل هي سنة ماضية في علوم الدنيا و الآخرة، مهما تعددت و تنوعت...⁴⁷

صحة العالم بين الواقعية والمثالية:

وبعض الأغرار⁴⁸ ينظرون إلى العلماء والصلحاء نظرة مثالية خيالية . مع الأسف . ويتصورون أن هؤلاء لا يلحقهم ضعف⁴⁹ ، ولا يُرد لهم دعاء، ولا يمسه بلاء؛ ناسين قول الله تعالى لسيد الأنبياء والأولياء: **"لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ"**⁵⁰ وبيان ذلك: أنهم إذا شاهدوا عكس الصورة التي في مخيلتهم عن العالم المنشود، أو المرابي المقصود، وظهر لهم في صورته البشرية العادية⁵¹ (لا يلبس الجلباب والطاقيّة)؛ سُقِطَ في أيديهم، (حصل لهم الندم على ما أقدموا عليه) وقالوا: هذا ليس بعالم، ولا شيخ، ولا شريف، ولا ولي، ولا مرب... ثم هجروه، وصدوا عنه، وراحوا يبحثون عن **"نموذج"** آخر، يناسب تصورهم القاصر، وفكرهم الضعيف.. وهكذا ينتقلون من شيخ إلى شيخ، ومن مذهب إلى مذهب، ومن مدرسة إلى أخرى؛ حتى يقعوا غنيمّة باردة -والعياذ بالله- في أيدي الدجاجلة والمتمسّخين، والغلاة والمتنطعين. ومثل هؤلاء يُصحون بدراسة علم النفس الاجتماعي، وقراءة التاريخ، ومعرفة المذاهب والفرق..، والإكثار من الاستخارة والاستشارة، والصدق في طلب الحق -أولا وأخيرا-.

- وليس من العدل والوفاء أن تنصرف عن العالم المعلم؛ تأثرا بالإشاعات، والوشايات، والأراجيف، والظنون... والواجب: التبين والتثبت، وحسن الظن، كما قال تعالى: **"فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين..."**⁵² فكيف إذا كان هذا المُتكلّم فيه شيخك ومريك؟. وإمامك وخطيبك؟ كيف كيف؟ ومن يعرف - يا أخي - الفضل لأهله إلا دَوُو الفضل؟ كما قال الشاعر:
وما عبّر الإنسان عن فضل نفسه
بمثل اعتقاد الفضل في كل فاضل

⁴⁷ المرجع السابق

⁴⁸ جمع غِرّ، وهو الذي يغرّه كل شيء، ويثق بالجميع، لسلامة صدره، وقلة تجربته.

⁴⁹ وفي هذا الصدد ذكر الصلاح الصفدي في " الوافي بالوفيات " قصة طريفة جدا، جرت بين الإمامين القرابي والقرطي، أثناء تنقلهما في مصر، وهي تدل بوضوح على بشرية العالم، وضعفه، وقلة حيلته..انظر كتاب (الإمام القرطي المفسر سيرته من تأليفه) ص31-32 للدكتور بنشريفية .

(مطبوعات الرابطة المحمدية).

⁵⁰ سورة آل عمران الآية : 128.

⁵¹ يقول صاحب الإبريز: " إن الذين أُلّفوا في كرامات الأولياء رضي الله عنهم وإن نفَعوا الناس من حيث التعريف بالأولياء؛ فقد أضروا بهم كثيرا من حيث إنهم اقتصروا على ذكر الكرامات، ولم يذكروا شيئا من الأمور الفانية، التي تقع من الأولياء الذين لهم تلك الكرامات...". وهو كلام تُشد إليه الرحال - كما يقال - . انظر " القرآن... " ص:80، للعلامة محمد الحجوي الثعالبي الفاسي.

⁵² سورة الحجرات آية: 6.

وليس من الإنصاف أن يدفع الفتى يدَ النقص عنه بانتقاص الأفاضل وأذكر هنا (للعبرة) أنني سمعت إشاعة عن أحد الخطباء -نفعنا الله به!- فقلت: سبحان الله ، إني لا أعلم عنه إلا خيراً!! وما هي إلا أيام معدودات حتى أظهر الله لي (بالملموس والمحسوس) براءة الرجل!! وعدت-ياسادتي- مرة أخرى إلى آية التبين (في سورة الحجرات)، وكابدت حقائقها..، وكأثما جديدة على سمعي!! أو كأني ما حفظتها وقرأتها!

ومن بصائر البصري رضي الله عنه: "إذا بلغك عن شخص أنه أخطأ في مسألة؛ فاجتمع به وأعرض عليه ذلك الخطأ، فإن أنكره فصدقه، ولا يجوز نسبة ذلك إليه بعد ذلك. وإن لم تجتمع به؛ فاحمل كلامه على سبعين تخملاً. فإن لم تُفنع نفسك بذلك؛ فارجع إليها باللوم، وقل لها: يحتمل كلام أخيك سبعين محملاً، ولا تخمليه على واحد منها"⁵³.

- واعلم -رعاك الله- أن العلماء والصلحاء مبتلون من قديم بكلام الناس فيهم، بحق وبباطل، ويعلم وجهل⁵⁴. وبقدر الكلام فيهم يعظم القدر، ويضعف الأجر، ويرتفع الذكر!! وهذا شيء معلوم في كتب التراجم والسير.. ولا يحتاج إلى دليل. ومن كلمات العالم الغربي كلارك: "أشرف الناس هم من يتعرضون للغيبة، وأطيب الثمار تهاجمها الطيور"⁵⁵. وقال شاعر مؤمن:

تالله لو صحب المرء جبريلاً لقال الناس فيه قال وقيلاً

وقال آخر:

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالماً ولو غاب عنهم بين خافيتي نسر
واقراً تراجم الأئمة الكبار تجد ما يلي: مولده، شيوخه، تلاميذه، مصنفاً، محتته، وفاته!.
وهل رأيت -رحمك الله- إماماً بلا محنة؟ أو فقيهاً نال رضا الوري طراً؟ إلا أن يكون موافقاً لهم في كل شيء.
وهذا لا يكون من عالم يخشى الله. فدوام الاتفاق نفاق، ودوام الاختلاف اعتساف - كما قال الحكيم-.

⁵³ من خلال تجربة متواضعة في التعامل مع أصناف الخلق؛ تبرزني لي أن أغلب الحواجز النفسية بين الناس سببها الأوهام الباطلة، والظنون السيئة، والشايات الكاذبة، ولم يسلم من ذلك -مع الأسف- حتى خاصة الخاصة!! ولو عملنا بوصية الله تعالى في التبين؛ لوفرننا على أنفسنا الوقت والجهد، ولكنا -كما أراد الله لنا- إخواناً.

وفي هذا السياق يُروى أن الفيلسوف أرسطو كان يعتقد أن أسنان الرجل أكثر من أسنان المرأة!! وكان يكفيه -كما يقول أحد الفلاسفة- أن يكلف زوجته بفتح فمها؛ ليدرك خطأ مقولته!!، وعليه، يمكن أن يقال هنا: يكفي أن نكلف أنفسنا فتح سماعات الهاتف النقال أو الثابت؛ لنثبت: هل هذا خير صحيح، أم ضعيف، أم مكذوب!!.

⁵⁴ روى مالك في الموطأ أن أبا الدرداء رضي الله عنه، قال: "كان الناس ورعاً لا شوك فيه، وهم اليوم شوك لا ورق فيه، إن تركتهم لم يتركوك وإن نقدتم نقدوك". يعني إن تكلمت في حقهم بحق، تكلموا في حقك ولو بباطل.

⁵⁵ لم أهدئ مرجع هذه الحكمة، "والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها" كما جاء في الحديث النبوي الشريف.

ومن كلام إمامنا مالك بن أنس -رحمه الله- في هذا المعنى: **"لا تغبطوا أحدا لم يصب في هذا الدين"**⁵⁶، فمن طلب -ياسادتي- عالما لم يتكلم فيه الناس فإنما يطلب المحال، ويعيش في الخيال، ومن صد عن العلماء لهذا السبب فقد فوّت على نفسه - والله- الخير، وضيع نفسه، دون أن يضرّ العالم شيئا.. والقاعدة الفقهية تقول: **"الراضي بالضرر لا يُنظر إليه"**⁵⁷

وفي هذا المعنى يقول أحد العلماء الشناقطة:

فَمَنْ صَدَّ عَنَّا بِحَسْبِهِ اللُّؤْمُ وَالقَلْبَى وَمَنْ فَاتَنَا يَكْفِيهِ أَنْنَا نَفُوئُهُ

ويُروى أن أحد العلماء امتحن تلاميذه فوقع فيما يمكن اعتباره مكروها، أو خلافَ الأولى؛ فغضبوا.. وانفضوا من حوله!. وفي الحلقة الموالية، تفقدهم فردا فردا؛ فلم يجد أمامه إلا واحدا منهم فسأله: ما الذي أبقاك عندنا يا فتى؟ فأجاب التلميذ: "أبقاني يا شيخني، أنني لم أصحبك على أنك معصوم (أي: لم أخالطك على أنك نبي لا تعصي، وإنما خالطتك على أنك بشر)".

قلت-غفر الله لي:- وهكذا يكون الوعي والثبات، والذكاء والوفاء، وإلا فلا. وهذا هو المثال الجميل لطالب العلم والحكمة..

وفي قصة أخرى شبيهة، قال الشيخ: **"لقد فعلت هذا عمدا ليفر عني هؤلاء النمل"**. يشير إلى كثرة التابعين بلا فائدة ولا عائدة!!

وأبي فائدة -إخوتي- في ازدحامنا على العلماء، دون مردودية وفعالية؟ وثبات ونبات؟ أي شيء حققناه إذا استنزفنا طاقات علمائنا دون وراثته حقيقية لعلومهم وفهومهم، وأخلاقهم وأذواقهم؟ أي طائل وراء الطالب المذبذب، الإمّعة..، الذي ينساق وراء كل ناعق، ويغيّر آراءه كما يُغيّر قُمصانه؟!.

● وبعض المتعلمين -مع الأسف- لا يتحملون شيوخهم ومربيهم، وربما اعترضوا عليهم، وعاملوهم بالمثل. ! وقد ينصرفون عن التعلم والتربية بسبب كلمة نابية (قاسية) صدرت من المعلم المربي - في حالة ضجر أو ملل أو غضب - المقصود منها في البداية والنهاية: إصلاح المتربي، وتقويم اعوجاجه، وترقيته، لا غير.

وكثير منهم توقفوا في بداية الطريق، أو في منتصفه؛ بسبب نصيحة أستاذ، أو مرب، أو فضولي، ومنهم من هجر شيوخه، وعاداهم بسبب ذلك!.

وعدم تحمل أهل الفضل -عموما- دليل -ربما- على بقية **"فرعونية"** أو **"جاهلية"**⁵⁸ في النفس! نسأل الله الستر والعافية! والخاسر في النهاية هو المتعلم المتربي -مع الأسف- **"ولو علم العامة قدر**

⁵⁶ مجموع الفتاوى ج4ص:50

⁵⁷ (أي: لا يُنظر إليه نظرة عطف وشفقة؛ لكونه ظلما لنفسه، فرحا بذنبه).

⁵⁸ إشارة إلى حديث البخاري في باب الأدب "إنك امرؤ فيك جاهلية".

العلماء عند الله عزوجل ما تركوهم يمشون على الأرض، ولتناوب أهل كل حومة العالم الذي فيهم،
وحملوه على أعناقهم!" كما عبر طالب ولهان، ذاق حلاوة القرآن!!
يقول الفقيه العلامة سيدي مصطفى العدوي- نفعنا الله بعلومه- "وقد تحمّل هارون عليه السلام موسى لَمَّا
أخذ برأسه يجزّه إليه، قال تعالى: وألقى الألواح وأخذ برأس
أخيه يجره إليه" الأعراف.

ولما قال أبو عبيدة لعمر رضي الله عنهما: أفرارا من قدر الله؟ فقال عمر: "لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟"
فتحمّلها عمر من أبي عبيدة. رواه البخاري. وتحمّل عمر مقولة أزواج رسول الله لما قلن له: "أنت أفظ وأغلظ من
رسول الله" رواه البخاري. انتهى.⁵⁹

وقال الإمام أبو إسحاق الشاطبي-رحمه الله-: "ترك الاعتراض على الكبراء محمود، كان المعتز فيهم مما يفهم
أو لا يفهم. والدليل على ذلك أمور:

أحدها: ما جاء في القرآن في قصة موسى مع الخضر، واشترطه عليه أن لا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه
ذكراً⁶⁰، فكان ما قصه الله تعالى من قوله: "هذا فراق بيني وبينك". وقد روي أن سلمة كان يُماري ابن عباس
فحرم علماً كثيراً". انتهى.⁶¹

وقال الناظم:

ومن يعترض والعلم عنه بمعزل يرى النقص في عين الكمال ولا يدري

أي: من يعترض على الشيخ المعلم وهو جاهل؛ فإنه يرى الكمال في صورة النقص، وتختلط عليه الأمور وهو في
غفلة..

وكان الشيخ المرابي أبو محمد عبد القادر الجيلاني - غفر الله لنا وله- يحذر أصحابه من الهروب عنه؛ (لخشونة
كلامه أحياناً)، ويقول: "لا تهربوا من خشونة كلامي، فما رباني إلا الخشن في دين الله عزوجل، كلامي خشن،
وطعامي خشن، ومن هرب مني ومن أمثالي لا يُفلح"⁶². وقال أحد الأئمة المرابين: "لا يستقيم الثوب إلا بوخز
الإبر..". "ولا تزول الأوساخ إلا بالفرك والتخشين".

⁵⁹ فقه الأخلاق ج1 ص:260 باب تحمل أهل الفضل.

⁶⁰ يقول أحد العلماء- بما معناه-: "وينبغي للتلميذ كلما أشكل عليه شيء من حال الشيخ ذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، كيف كان الخضر
يفعل أشياء ينكرها موسى فإذا أخبره الخضر بسرهما يرجع موسى عن إنكاره...".

قلت-عفا الله عني-: وكمن من أشياء اعترضنا فيها على أساتذتنا ومريننا، ظاهراً، أو باطناً، ثم أدركنا -بعد سنوات- أننا واهمون، غلطون، متسرعون.
أما قولهم: "من اعترض انظره" ومن قال لشيخه لم؟ لم يُفلح؛ فالأولى أن يُحمل كلام أكابرنا على الحمل الحسن- وإن لم نأخذ بأقوالهم-
وُحْمَل هاتان العبارتان - والله أعلم- على من اعترض على شيخه - تطاولاً وتعتناً- لا تبيئاً وتثباتاً. والله أعلم.

⁶¹ الموافقات ج5 ص: 393.

⁶² انظر "الفتح الرباني" ص: 162 المكتبة الشعبية، بيروت.

وروي أن أحد القضاة في عصر مالك-رحمه الله- كان يقول: "ليت مالكا جلدني مائة سوط، وحدثني بمائة حديث!!" ⁶³.

و من الأبيات المنسوبة للشاعر الأحنف العكبري:

ولطمة عالم في الخد مني ألد لدي من شرب الرحيق

قلت -غفر الله لي-: نعوذ بالله أن نلطم أو نلطم، أو نلطم أو نلطم!! نعوذ به تعالى من الشدة والحدّة؛ (متعلمين ومعلمين!!) نعوذ بالله! نعوذ بالله! ولكن ما أكثر اللطمات الحسية والمعنوية التي تلقيناها من والدنا ومعلمينا ومريينا- رحمهم الله- في الصغر؛ فكانت لنا دواء وشفاء. و"رب ضارة نافعة!". وما أرى كناكينتنا "أولادنا المنعمين" يرضون الآن أن يُشاكوا بشوكة، أو ينقروا بنقرة في سبيل العلم والتربية؛ حتى وإن عاشوا جهلاء، وماتوا أشقياء.. إنهم -ياسادة- كالكقط الأليفة، والأطيّار المدللة، كما قال الشاعر الهندي محمد إقبال: "إنه طائرٌ مدللٌ، كنتَ تطعمه بيدك، وقد ربّيتُه بالفواكه، فشقّ عليه البحث عن رزقه وقوته في الصحراء!!". ⁶⁴

وينبغي للرباني، العارف بزمانه ومكانه، أن يتألف قلوب هؤلاء المساكين، ويسوسهم بالرفق واللين -رحمة بهم- بل يُستحب أن يكون معهم تارة كالطبيب مع مريضه، أو كالتلميذ بين يدي معلمه، والأجر على الله تعالى. أوليس من أمارات الساعة -كما جاء في حديث جبريل-: "أن تلد الأمة ربتها" ⁶⁵. أولسنا-ياصاح- في آخر الزمان؟.

إذا نفذ الصبر عند الحكيم فصبر المعلم لا ينقد
يكذ ويكده في درسه ويشقى وطلابه تسعد

- ومن طلاب العلم: الطالب الملول. والملول -كما قال الإمام الماوردي في كتابه العُجاب "أدب الدنيا والدين-: "هو السريع التغير، الوشيك التنكر، فوداده خطر، وإخاؤه غرر؛ لأنه لا يبقى على حالة، ولا يخلو من استحالة، ومنهم من يكون ملله استراحة، ومنهم من يكون ملله تركا واطراحا" ⁶⁶.

قلت - عفا الله عني- : وقد رأينا- نحن طلبة العلم- من هذا الصنف أحوالا عجيبة، وطرائف نادرة، فمرة يُقبل على العلم بشغف ونهم؛ حتى أنه لئذكَرَّ بحمّة الأولين، وعزائم الأقدمين. ومرة يأفل مع الآفلين؛ حتى تنسى اسمه ووسمه، ومرة يختفي حتى تعتقد أنه قد هلك -رحمه الله- وقُسمت تركته!! ومرة يُكثف الزيارات، والمكالمات، والمراسلات؛ حتى يخلجك بأدبه وذوقه. ومرة يُطلُّ عليك من بعيد، ويشير إشارة الأبكم الأصم!! ومرة يقبل يدك ورأسك وذراعك -رغم أنفك وفمك ووجهك كله!! - ومرة يمد إليك اليد، أو

⁶³ سمعت هذا من العلامة الشيخ محمد الحسن الددو الشنقيطي، في لقاء قناة السادسة. .

⁶⁴ الطريق إلى المدينة، للأستاذ أبي الحسن الندوي ص:27.

⁶⁵ أخرج الإمام مسلم في صحيحه ...

⁶⁶ أدب الدنيا والدين الماوردي ص:282.

يتظاهر بالتقبيل، أو بنصفه، أو ثلثه..، ويقول: كيف حال الأخ فلان؟ أو أهلاً وسهلاً بسي الحاج !! مرحباً مرحباً !! ومرة يأتي في صورة شيخ معمم، مكحل العينين، يتعثر في فرجة القرويين⁶⁷..، أو جبة الأزهرين! ويقول: هل من سؤال؟ هل من سؤال !! ومرة يقول: أقرني يافلان، رواية ورش عن نافع، ثم يدركه الملل ويقول: يا شيخ، أليس حفصٌ أولى؟ ألسنا في أوروبا؟ ما رأيك؟ وتارة يقول: خصص لي كأستاذ، درسا في الفقه الحنفي والظاهري. ثم يغير رأيه ويقول: لا لا . "الخاص لا يُنتفع به" !! كما قال مالك !! . وهكذا...، حتى إذا استنفد مطالبه وغرائب..، ولم يبق له وجه! - كما يقول أهل المغرب - أنحى باللائمة على الأستاذ، أو على الإمام، أو على الظروف ! وانتقل إلى حلقة أخرى، أو مدرسة أخرى؛ لعله يجد الفرج - بإذن الله-. فإذا استيقن أن العلة فيه، لا في غيره؛ لجأ إلى الإنترنت، أو الكاسيت،.. وأغلق عليه داره وهاتفه، وتلّفّع في ثوب جديد..، وطواه النسيان، وصار في خبر كان.. !!.

ومن طرائف الحكمة -والحكمة ضالة المؤمن-: "لا نبات بلا ثبات" "الملتفت لا يصل" "الحجر المتدحرج لا ينبت عليه العشب".

⁶⁷ يقول الناظم الفاهم -رحمه الله-:

وما دمت لم تُنظّم فلا فرجة عليك ولا تُلقَى عليها بمُسْتَحْرٍ

أي: ما دمت - أيها الطالب - لم تُنظّم عن رضاع التربية والتعليم، ولم تبلغ مبلغ الاستقلال؛ فلا يليق بك أن تتقمص شخصية الشيخ، وتلبس زهيم المعروف، كالفرجة الفاسية، أو الجبة الأزهرية، أو العمامة القروية، أو البرانس الزيتونية !!، أو ما أشبه ذلك من زي الفقهاء والعلماء، فهذه جراءة، وخفة، وتلبس، وتدليس.. =أما المستحري في اللغة: فهو المتهور، الجريء، الذي له جرأة على الشيء، وإقدام في غير محله. وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "المتشيع بما لم يُعط كلابس ثوبي زور".

يقول ابن حجر في "فتح الباري شرح صحيح البخاري": قوله: المتشيع أي المتزين بما ليس عنده؛ يتكثر بذلك، ويتزين بالباطل، كالمرأة تكون عند الرجل، ولها ضرة فتدعي من الحظوة عند زوجها أكثر مما عنده تريد بذلك غيظ ضرتها، وكذلك هذا في الرجال قال: وأما قوله: كلابس ثوبي زور؛ فإنه الرجل يلبس الثياب المشبهة لثياب الزهاد، يوهم أنه منهم، ويُظهر من التشيع والتقصيف أكثر مما في قلبه منه... وقال النووي في "شرح مسلم" عند شرح هذا الحديث: "قال العلماء: معناه المتكثر بما ليس عنده بأن يظهر أن عنده ما ليس عنده؛ يتكثر بذلك عند الناس، ويتزين بالباطل؛ فهو مذموم، كما يُذم من لبس ثوبي زور .

قال أبو عبيد وأخرون: هو الذي يلبس ثياب أهل الزهد والعبادة والورع، ومقصوده أن يُظهر الناس أنه متصف بتلك الصفة، ويُظهر من التشيع والزهد أكثر مما في قلبه؛ فهذه ثياب زور ورياء، وقيل هو كمن لبس ثوبين لغيره، وأوهم أنهما له، وقيل هو من يلبس قميصاً واحداً، ويصل بكُميه كُمَيْن آخرين؛ فيظهر أن عليه قميصين"

وفي تاريخ أبي يوسف، قاضي القضاة في عصر هارون الرشيد، أنه مرض في حياة شيخه أبي حنيفة، فعاده شيخه، وقال له: قد كنت أؤملك بعدي للمسلمين، ثم برئ أبو يوسف من مرضه، وقد أعجب بنفسه حين سمع شهادة شيخه له، فعقد مجلساً خاصاً منفرداً عن شيخه أبي حنيفة، فأرسل إليه أبو حنيفة من يسأله عن خمس مسائل دقيقة، يحتاج الجواب فيها إلى تفصيل وإيضاح؛ فأخطأ أبو يوسف في الإجابة، وأدرك خطأه في الانفراد عن =شيخه؛ فعاد إلى حلقة، فقال أبو حنيفة: "تربت قبل أن تُحصرم" (مثل عربي قديم يقال في من كطف الثمرة قبل إبانها، ولم يحترم سنة الله في التدرج، ومراد أبي حنيفة هنا اللوم على تلميذه الذي نصّب نفسه للتدريس قبل بلوغ المستوى المطلوب). وفي رواية أخرى قال له: "من ظن أنه يستغني عن التعليم فليكن على نفسه".

فاحذر - أخي الحبيب- أن تقع فيما وقع فيه أبو يوسف، رحمه الله؛ فيصيبك ما أصابه من ألم الندم، ومرارة الدواء !!

إياك ثم إياك أن تغتر بمدح العوام، وتتصدر قبل الأوان؛ مقلداً لشيخك أو أستاذك في جراته، ونكته، وأمره، ونهيه..، فالأستاذ أستاذ وإن نزل، والتلميذ تلميذ وإن علا. ولا قياس مع الفروق. ويتوب الله على من تاب .

- والناس في هذا الملل أنماط وأنواع، ومذاهب ومشارب. فمنهم السريع الملل، ومنهم المعتدل، ومنهم...، والأسباب كثيرة، ومركبة، وأبرزها: الرواسب النفسية، والمراهقة الفكرية، وضَعْف التربية، والثورة المعلوماتية...!!!

والمفروض في طالب العلم أن يكون صابرا مرابطا، يواصل سهر الليل بعناء النهار، ويتحمل الحر والقر، والجوع والعطش...، وأذى الخاص والعام؛ حتى يستفيد ويفيد، ويَرث ويُوَرث، وخصوصا في مجال حفظ القرآن، وإتقان علومه، (على أيدي الشيوخ المهرة)، ودراسة المتون، وكذا في مراحل تصحيح الرسائل العلمية، والبحوث الجامعية.. كل هذا وذاك يحتاج - إخواني - إلى نَفْسٍ طویل، وصبر جميل.. نكاد نفتقده في هذا الزمان- مع الأسف- "فيا أقدام الصبر احملي؛ بقي القليل!"⁶⁸

صور من إجلال العلماء

قال تعالى " ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه"⁶⁹ وتعظيم العلماء الربانيين من تعظيم حرمات الله، وشعائر الله. يقول الإمام أبو عبد الله محمد، (المعروف بالهبطي الصغير) في كتابه " كنز السعادة... " "...والحرمات جمع حرمة، وهو ما لا يحل هتكه من جميع الشريعة، والشعائر هي أمور الدين على الإطلاق، وتعظيمها القيام بها وإجلالها، وقد قيل في معنى قوله "صلى الله عليه وسلم": "إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم"⁷⁰ أنها تكفها عن الطيران تعظيما لطالب العلم، فحسبك بمن تُعظمه الملائكة... وبالجملة، فتعظيم العلماء في نفوس العامة واجب، وإلا لم ينتفعوا بهم، لأنهم قادتهم وهداتهم. " انتهى.

وقال تعالى: " ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ"⁷¹ والشعيرة - كما قال المفسرون - كل ما أشعر الله بفضله وتعظيمه. وورثة الأنبياء - بلا ريب - يدخلون دخولا أوليا في شعائر الله المعظمة، بدلالة نصوص كثيرة، نزلت في فضلهم وتعظيمهم - كما حقق أهل العلم - .
ومن عقيدة أهل السنة والجماعة- كما قال الفقيه المفسر ناصر السعدي- "أنهم يدينون الله باحترام العلماء الهداة"⁷².

وقال الإمام ابن حزم الأندلسي-رحمه الله-: "اتفقوا على توقير أهل القرآن، والإسلام، ... وكذلك الخليفة، والفاضل، والعالم"⁷³.

⁶⁸ الفوائد لابن القيم.

⁶⁹ سورة الحج. آية: 29.

⁷⁰ رواه الترمذي رقم 2682 ، وأبو داود رقم 3641 ، وابن ماجه رقم 223 ، والطيالسي، وأحمد في مسنده

⁷¹ سورة الحج الآية : 32

⁷² القول السديد في مقاصد التوحيد.

⁷³ الآداب الشرعية، والمنح المرعية لابن مفلح المقدسي.

- وطاعة العلماء (العدول) فيما يتعلق بأمر العلم أفرض من طاعة الأمهات والآباء، بنص الكتاب " يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم"⁷⁴ كما قال الإمام ابن القيم في "إعلام الموقعين"⁷⁵ ولذلك سموا: "أولي الأمر" في قوله تعالى: **"وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ..."**⁷⁶.

وأولوا الأمر على الراجح من الأقوال-عند المحققين- هم العلماء والأمراء. وهم أولوا النهي أيضا - كما قال الإمام المحدث الفقيه الرباني أبو بكر الآجري في كتابه النافع- : "أخلاق العلماء" مستشهدا بقوله تعالى: **"لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِنَّمِ وَأُكَلِّمُهُمُ السُّحْتِ"**⁷⁷ يعني: فقهاؤهم وعلمائهم⁷⁸.
قال مقيده- عفا الله عنه-: ومن أحقُّ -سادتي- بالأمر والنهي من العلماء بحقائق الشرع، وقواعد الحسبة، وطرائق "التغيير"؟ من يأتري يسد مسدَّهم، ويقوم مقامهم إلا الغوغاء والدهاء.. الذين يصلحون ولا يفسدون، ويهدمون ولا يبنون، ويهرفون بما لا يعرفون.. فياليت قومي يعلمون !!

- ومن إجلال العالم المعلم إعفاؤه من بعض الفروض والواجبات الكفائية، التي يتيسر للعامّة والطلبة القيام بها دون كلفة وعسر؛ ليتفرغ لما هو فرض عين في حقه، كالتعليم، والتربية، والتأليف، **والفتوى...**⁷⁹

وهذا شيء قد لا يتفطن له الخاصة فضلا عن العامة، ولا سيما في بلاد الغرب، (التي يتحمل فيها الإمام العالم وأهله أحيانا ما لا يُطبقه بشر).

- كان الله في عونكم يا علماءنا ! وغفر الله لنا كل تقصير في حقكم ! .
- فإن كان ولا بد من حضور العالم في حفل، أو مناسبة؛ فأنزله منزلته، وعرف به أهلك وأضيافك، **ولا تُجلسه بين قوم لا يعرفون قدره.** واستفد من وجوده، وبادر إلى إكرامه، ولا تحبسه طويلا، ولا تُثقل عليه بفضول الكلام والطعام؛ فإن أوقات العلماء ليست ملكا لهم، ولا لأفراد معينين - كما يظن بعض الخيَّرين - بل هي ملك للبشرية كلها- بلا امتراء-. ولو استطعنا نحن -العامّة- أن نضيف إلى أكابرنا سنوات من أعمارنا لوجب أن نفعل - قرابة إلى الله- ولكن لا خيار.. لا خيار.

⁷⁴ سورة النساء آية: 59 .

⁷⁵ إعلام الموقعين ج 1 ص:10.

⁷⁶ سورة النساء الآية : 83

⁷⁷ سورة المائدة الآية : 63

⁷⁸ أخلاق العلماء ص: 37

⁷⁹ وكنت أسمع من شيخنا الوالد - أعلى الله مقامه- أن الفقيه المتفرغ للعلم تسقط عليه بعض التكاليف الواجبة بالعرف، كالتوسع في الضيافة، والمعاوضة على الهدية،... فلم يتسع عقلي لذلك في الصغر؛ حتى وقفت على هذه المسألة بعينها في "مدونة الفقه المالكي" للفقيه المالكي الليبي، =العلامة الرباني، الصادق الغرياني. وهذا نصها: "ليس على الفقيه ضيافة". روى سعد المعافري عن مالك، قال: ليس على الفقيه مكافأة على هدية، ولا ضيافة أحد، ولا شهادة بين اثنين إلا أن تعين، لأنه مشغول بالمطالعة والفتوى والتعليم".

أجل-إخوتي- أوقات سادتنا وأساتذتنا غالية، معدودة، محدودة...!! لا يجوز إهدارها في غير طائل، بدعوى المحبة والاستئناس!!.

حرام علينا - ياناس- أن نفعل ذلك، أو نساعد عليه، أو نُقرّه، بشكل من الأشكال؛ مهما كان التفسير و"التبرير". فإن الحساب عسير.

واعلم-رعاك الله- أن عقل العالم (العامل) مع كتبه، وأبحاثه، وفتاويه، وأوراده، وطلابه، وإن تظاهر بغير ذلك أحيانا.. ومن رأيتَه -من قرائنا- مؤثرا للوسائد، ملازما للموائد؛ فاعلم -علم اليقين- أنه ليس عالما ولا هم يجزنون؛ وهو بالعامّة أشبه !! وإن شئت فقل: هو طالب صيد! لا أقل ولا أكثر. عافانا الله !!

● ومن تعظيم العلم: تعظيم العالم المعلم، وإنزاله المنزلة اللائقة به؛ اعترافا بفضله وعلمه، وتقربا إلى الله عزوجل بذلك. يقول الله تعالى: "**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**"⁸⁰ والجواب - طبعاً: لا يستونون، لا يستونون، لا يستونون!!، ومن سؤى بين العالم والجاهل فقد خالف الفطرة والعقل والشرع، وبخس الناس أشياءهم.

وفي بيان منزلة العالم يقول عليه الصلاة والسلام: "**ليس منا من لم يجلّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه**"⁸¹ أي: ليس من سنتنا، وأخلاقنا، وهدينا.

ومعلوم أن هذا التعبير "**ليس منا**" تعبير قوي، يؤذن بغضب رسول الله عليه السلام . ويشبهه: "**ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**".

قلت -غفر الله لي-: ولا ندري والله كيف يكون حال من شمله هذا الضرب من الوعيد، ثم لا يستحيي بعد ذلك أن يرفع عقيرته قائلاً: السنة!، السنة! السنة!...!! ونقول: بارك الله في السنة الشريفة! وصلى الله وسلم وبارك على صاحبها النبي الأمي وعلى آله وصحبه! ولكن أي سنة هذه -ياقوم- بعد الإخلال بحق الكبير، والصغير، والعالم التّحرير، والوقوع في غضب النذير البشير؟!! أي سنة هذه؟! بعد أن يفقد الإنسان أجديات الأدب، وأساسيات الذوق؟⁸²

⁸⁰ سورة الزمر. الآية: 9

⁸¹ حديث حسن رواه أحمد في مسنده رقم 23911 والحاكم في المستدرک.

⁸² وقد يُوي أن كان رجلاً كبيراً في السن، وقع في بعض الأخطاء في زيارة المسجد النبوي الشريف؛ فتقدم إليه أحد طلبة العلم (حسب الظاهر)، وبدأ ينكر على الشيخ، ويغلظ في الإنكار، وهو يقول: هذا ليس من السنة، هذا مخالف للسنة...!!،؛ حتى أحدث ضجة في الحرم الشريف، والرجل الزائر ساكت لا يرد عليه؛ فلما انتهى الطالب؛ قال له الرجل الزائر: وهل قلة الأدب (يابني) من السنة؟؟؟ فشقط في يد الطالب...، وهرب من مكان الواقعة!!!

وفي الحرم النبوي الشريف أيضاً ابتلي أحد شيوخنا بشباب متحمس..، ينقصه الأدب والذوق- فرد عليه شيخنا: يابني، تعرّف أولاً على مخاطبك...!! ولقنه درساً في الأدب لا ينسى!!.

أمن السنة - يعباد الله - أن تُنادي العالم العَلَم باسمه المجرد، الجاف، مثل: يا محمد! ياطاهر، يافاطمة! يا مريم! يا عياشي...! عندي سؤال لك.. أجبني حالا!. ورحم الله فقيه السنة - بحق - الإمام طاووس بن كيسان⁸³ القائل: "إن من السنة أن تُوقر العالم".

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "ينبغي للحبر - (بكسر الحاء وفتحها: وهو العالم الرباني) أن يُعظَّم ويُشَرَّف".

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: "كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدًّا فينا" أي عظم قدره، وصار جليلاً مُعظَّمًا⁸⁴. وفي رواية ابن حبان: "عَدَّ فينا ذو شأن".

قلت - عفا الله عني -: وذاك دليل على تعظيمهم للقرآن⁸⁵. فهل نحن - يا إخوتي - كذلك في هذا الزمان؟ هل يكبر حامل القرآن - حقيقة - في أعيننا؟ هل نشعر - صدقا - بفضله وحضوره وبركته؟ هل تُسعدنا رؤيته؟ هل تُبهجننا مجالسته؟ هل يعني حامل الزهراوين (البقرة وآل عمران) شيئا في قاموسنا الاجتماعي والثقافي...؟ نرجو الله ذلك !!.

وجاء في سير أعلام النبلاء للذهبي⁸⁶: أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يُجلُّ القارئ الصحابيَّ أبيَّ بن كعب، المكنى بأبي المنذر، ويتأدب معه، ويتحاكم إليه. وفي رواية أخرى: كان عمر يسمي أبيَّ بن كعب بسيِّد المسلمين !!.

ورُوي أيضا أنه كان يقدر فقه ابن عباس رضي الله عنهما ويدخله مع أشياخ بدر، ويجلسه في مجالس الشورى. قال ابن عبد البر في الاستيعاب: "كان عمر رضي الله عنه يحب ابن عباس، ويدنيه ويقربه ويشاوره".

ومن المقولات الجلييلة لسلطان العلماء، العز بن عبد السلام - رحمه الله - في كتابه العُجاب "شجرة المعارف والأحوال"⁸⁷..: "يُكرم الناس على قدر أوصافهم. فإذا كان أكرمنا أتقانا، فينبغي أن يكون أتقانا أكرم خلق الله تعالى علينا، وأحبهم إلينا؛ لنعامله معاملة الله إياه....".

قلت - غفر الله لي -: تأمّل - أخي - هذا الكلام الذهبي مرات ومرات، ثم اذرف معي دموعا ودمعات، وازفر زفرات.... !!!

تأمل تأمل - حبيبي -! هل نُكرم الناس في هذا الزمان على أقدار أوصافهم؟ أم هل نعاملهم معاملة الله إياهم؟ ألا ما أحوجننا إلى التحقق بأخلاق القرآن، قبل فوات الأوان !.

⁸³ طاووس هو التلميذ النجيب لابن عباس، رضي الله عنهما، وصاحب الجائزة التاريخية المشهورة، قال عنه أستاذه ابن عباس: "إني لأظن طاووسا من أهل الجنة"

حلية الأولياء" ج4 ص: 4

⁸⁴ تفسير البغوي (سورة الجن)، عند تفسير قوله تعالى: (وإنه تعالى جدُّ رينا).

⁸⁵ فتعظيم الحامل دليل على تعظيم المحمول، والعكس بالعكس.

⁸⁶ ج1 ص: 182.

⁸⁷ ص: 279.

- ومن إجلال الأكابر في العلم والسن والفضل، أن لا نتقدم بين أيديهم في الكلام - وإن أحسنًا - وفي تناول الطعام - وإن جُئنا - وفي الدخول والخروج⁸⁸. وإن انتظرنا. فهل فهمنا؟ اللهم أدبنا!

وتقدّم الأكابر... من أساسيات الأدب، وألف بآء الذوق، يعرفها الآدمي بفطرته، وسلامة فهمه، وهو أدب عالمي، اتفقت عليه كل الأذواق البشرية، والأعراف الأرضية. ومع ذلك قد تجد كثيرًا من "الأصاغر" يتقدمون في الدخول والخروج، والكلام، والطعام، قبل والديهم، ومعلميهم، ومربيهم، وأئمتهم، ومُسنّيهم...، ويزاحمونهم في الصفوف، ويسبقونهم إلى **المقاعد الأمامية** في المجالس، والمحافل، والمراكب...، غير مباليين ولا متأتمنين! مع أن ذلك أمر قبيح جدا جدا، لا يفعله كرام الناس، وخيار الأمة!.

وبعضهم يعتذر بأن أستاذه أو مربيه هو الذي أشار عليه بالتقدم، وشرفه وفضله!! وذاك **"عذر أقبح من ذنب"** - كما يقال - فإن الكبير قد يفعل ذلك تعليمًا، أو تواضعًا... والتواضع - كما هو معلوم - يُقابل بتواضع مثله، أو أحسن منه، لا بجفاء وبذاء. ورحم الله الشافعي المجرب القائل: **"ما رفعت من أحد فوق منزلته إلا وضع مني بمقدار ما رفعت منه"**⁸⁹. والمهتدي من هداه الله.

- والعالم المربي عندنا بمنزلة الوالد في التقدير والتوقير، وما لا يليق قوله وفعله مع الوالدين لا يليق قوله وفعله أيضا مع العلماء المربين، والدعاة الصالحين.

قال الإمام النووي الشافعي رحمه الله في ((المجموع)) وهو يترجم لأحد العلماء القدامى: **"هو أحد أجدادنا في سلسلة الفقه"**.

وجاء في كتاب "بر الوالدين" أن أبا يوسف الفقيه، تلميذ أبي حنيفة - رحمه الله - كان يقول عقيب صلته: **"اللهم اغفر لأبوي ولأبي حنيفة"**⁹⁰

قلت - غفر الله لي -: وسبحان الله رب العالمين! فلا يحصد العبد إلا ما زرع. فلقد جاء في كتاب "الإمام الأعظم أبو حنيفة" للأستاذ الشكعة، أن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه كان كثير الدعاء لشيوخه حمّاد، وكان يقول: **"ما**

⁸⁸ يقول الإمام النووي رحمه الله. "وإذا دخل جماعة قدموا أفضلهم وأسنهم". انظر مقدمة المجموع ص: 141. في "باب آداب العلم".

وقال الإمام المالكي محمد بن رشد - رحمه الله -: "فإذا استوت أحوال المجتعيين أو تقاربت كانت البداية باليمين مما يستحب في مكارم الأخلاق، لما في ذلك من ترك إظهار ترفيع بعضهم على بعض بالتبذئة به، وأما إذا كان فيهم العالم وذو الفضل والسن فالسنة في ذلك أن يبدأ به حيشما كان من المجلس، ثم يناول من كان على يمينه كما فعل رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «إذ أتى بلين قد شيب بماء، وعن يمينه أعرابي وعن يساره أبو بكر، فشربه ثم أعطاه الأعرابي، وقال الأيمن فالأيمن» ولا يعطي الذي على يساره وإن كان أحق بالتبذئة من الذي على يمينه لعلمه وخيره وسنه إلا بعد أن يستأذنه في ذلك، كما فعل رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «إذ أتى بشراب فشرب منه وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ فقال للغلام أتأذن لي أن أعطي هؤلاء فقال لا والله يا رسول الله لا أوتر بنصبي منك أحدا فتله رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في يده.» وقوله في الرواية: أو الوضوء، يريد غسل اليد في الاجتماع للطعام، وبالله التوفيق. البيان والتحصيل ج. 18 ص 554. نقلًا عن "من أدب الإسلام" لأبي غدة.

⁸⁹ مواعظ الإمام الشافعي. صلاح أحمد الشامي ص: 31 نقلًا عن سير أعلام النبلاء للذهبي.

⁹⁰ للإمام أبي بكر الطرطوشي الأندلسي المالكي: ص: 38.

صليت صلاة منذ مات حماد إلا واستغفرت له مع والدي". وقال أيضا: ما مددت رجلي نحو دار أستاذي حماد إجلالا له، وكان بين داري وداره سبع سبكات⁹¹

وبلغ من أدب الشافعي -رحمه الله- أنه ترك القنوت في صلاة الصبح لما صلى مع جماعة الحنفية في مسجد إمامهم ببغداد؛ فقال الحنفية: إنه فعل ذلك تأدبا مع الإمام⁹²

وقال العالم أبو محمد التميمي -رحمه الله - : " يقبح بكم أن تستفيدوا منا، ثم لا تذكرونا ولا تترحموا علينا". فاللهم أثب من أفادنا، وارحم من علمنا!

وژی أنه لما قرأ ابن مهدي (إمام المحدثين في عصره) "رسالة الشافعي" في الأصول، التزم بالدعاء له دبر كل صلاة حتى مات؛ لشدة إعجابه بها، وكثرة إفادته منها.

وقلما حضر كاتب هذه السطور مجلسا لشيخه العلامة الدكتور أيمن رشدي سويد⁹³ - أعزه الله - دون أن يترحم فيه على أساتذته ومربيه، ولا سيما شيخ القراء، وأمين الإفتاء بمصر، الفقيه الورع، سيدي عبد العزيز عيون السود⁹⁴ - يرحمه الله - بل إن شيخنا - أعلى الله قدره - يستطرد في ذكر مناقب صهره وشيخه سيدي عبد العزيز؛ حتى يغلبه الوجد، ويخنقه الدمع!! وخاصة إذا ذكر صلاته وتسيبته، وزهده وورعه، وجوده وكرمه.. وكيف ختم الله له بالموت ساجدا، أو رافعا من السجود، في ساعة السحر!! في تمام الثلاثة والستين!! .

وحدثنا - تحدثاً بنعمة الله - أنه حجَّ بشيخه القرآني الرباني، الفقيه الكيس⁹⁵، أبي الحسن محيي الدين الكردي⁹⁶ - أعلى الله مقامه - مرات عديدة، يخدمه فيها كما يخدم الولد والده، والحفيد جده، وظل يبزّه ويتعهده

⁹¹ حرمة أهل العلم الدكتور المقدم.ص:195

⁹² مقدمة المغني للشيخ محمد رشيد رضا.

⁹³ شيخنا غني عن التعريف، ويكفي أن يُعلم بأنه - بلا تعصب - من أئمة القراءات والتجويد في هذا العصر، رواية ودراية ورعاية، ناهيك عن همته، وموسوعيته، وفعالتيته، كما شهد الخاص والعام. وقد سألت عنه - قديما - عالم القراءات والتجويد بالمغرب، الأستاذ المحقق، الشيخ الدكتور عبد الهادي احميتو - حفظه الله - فقال لي بالحرف "ذاك رجل لا نظير له (في فنه)، لا نظير له!!".

ولشيخنا (أيمن) برنامج قرآني مشهور في قناة "اقرأ الفضائية"، يتابعه الملايين، وله تلاميذ عدة، وكتب حمة، وفضله كبير على الأمة، نفعنا الله بعلومه، وبارك في عمره، وجمعنا به في دار كرامته، ومستقر رحمته، مع السفارة الكرام البرة. آمين!!

⁹⁴ الشيخ عبد العزيز عيون السود، رحمه الله، من أصحاب الأسانيد العالية في القراءات. درس على كبار علماء الشام، وأخذ عن مشاهير القراء، وله باع في الحديث النبوي رواية ودراية، ناهيك عن الفقه الحنفي.

اشتهر - رحمه الله - بالكرم والوجد، والأوراد والأذكار، وكان يرى النبي صلى الله عليه وسلم في غالب لياليه - كما ذكر عارفوه -، مواظبا على صلاة الجماعة، ولا يُعلم أنه صلى الفريضة منفردا، منذ العاشرة، أو الثانية عشرة من عمره - كما حدث أستاذنا أيمن في مناسبات مختلفة - .

له تلاميذ عدة، أشهرهم: أستاذنا الشيخ أيمن سويد، والشيخ سعيد العبد الله محمد، شيخ قراء حماة، والشيخ التميمي الزعي... توفي شيخ شيخنا العلامة عيون السود - رحمه الله - عام 1979م. وأعلى مقامه، ونفعنا بعلومه، آمين!!

⁹⁵ يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: "بعثني الأشعري إلى عمر فقال عمر: كيف تركت الأشعري؟ فقلت: تركته يعلم الناس، فقال عمر: إنه كَيْسٌ (فطن) ولا تسمّعها إياه". وكان أبو موسى الأشعري (أمير البصرة) يعلم الناس القرآن بالمسجد، مع كثرة أعماله. سير أعلام النبلاء ج2 ص: 390.

⁹⁶ مات الشيخ أبو الحسن الكردي عن عمر مبارك يناهز المائة، سنة 1430هـ الموافق 2009م. =

=قضى_الشيخ الكردي_ أكثر من سبعين سنة في خدمة القرآن وأهله، بإحدى مساجد دمشق. (يبدأ قبل صلاة الفجر، وينتهي بعد صلاة العشاء، ولا يتوقف إلا لصلاة، أو طعام، أو استراحة خفيفة، أو حاجة عارضة)!! وتلاميذه لا يكادون يُحصون كثرة، ما بين رجال ونساء، ومشاركة ومغاربة، رحمه الله تعالى، ونفعنا به، وبجميع القراء الصالحين، آمين!!..

إلى أن فَرَّقَ بينهما هاذم اللذات، ومفرق الجماعات!! رحمه الله، رحمه الله!. ومثلُ هذا الخلق الجميل لمسناه في مُعلمنا الجليل، الشيخ المقرئ، الدكتور صفوان عدنان داوودي⁹⁷، (نزِيل المدينة المنورة) - نفعنا الله بعلومه!-، والكلام عن ذلك يطول، ونسأل الله تعالى أن لا يَحْرِمنا جميعا هذا الخلق الرفيع، والعلم الوَسِيْع! ويغفر لنا تقصيرنا وجهلنا!! آمين

ومما يُذكر هنا أيضا أن العلامة الفقيه الحاج البشير توفيق السوسي، الأمازيغي - رحمه الله-⁹⁸ كان يَبْرُ أشياخه كما يَبْرُ والديه تقريبا. ولقد شَهد منه أولاده أمورا عجيبة في ذلك. ومما ذكره في ترجمته: أنه كان-يرحمه الله- يَخْرُج في كل صيف لزيارة الأحياء منهم، ويصطحب أولاده معه، من باب التعليم بالقُدوة، ولا يزال يزورهم، ويبر بهم؛ حتى تبلغه وفاتهم؛ فيعزي فيهم، ويتألم لفراقهم، ويستغفر لهم، ويثني عليهم!. وكان إذا استشار أحدهم في بعض أموره عمل بمشورته، ولم يتجاوزها في الغالب. وإذا أمره بشيء (لم يَسْتَسِعْه) طَيَّب خاطرهم، واستحيا أن يقول لا (بصريح اللفظ)⁹⁹.

ورغم توسع الأستاذ البشير -رحمه الله- في المعرفة، وترقيته في سُلَّم الوظيفة؛ فإنه لم يكن يتظاهر بشيء من العلم أمام أساتيدَه ومرييه، الحاضر منهم والباد، خلافا لبعض الأثقال الأُنكاد، الذين تغرهم الشواهد والألقاب، والشهرة والسراب؛ فيشمخون بأنوفهم، ويتعالون على والديهم، ومعلميهم، ومرييهم، وينسى هؤلاء المساكين أنهم غراس هؤلاء، ولولاهم لما أتى الواحد منهم ولا جاء¹⁰⁰. بل إن الأستاذ الحاج البشير -رحمه الله- لم يدع

⁹⁷ هو أستاذنا ومعلمنا وشيخنا في "موطأ الإمام مالك" الدكتور صفوان داوودي، الجامع للقراءات الصغرى والكبرى على يد قراء الشام، وهو فقيه أصولي، وعالم لغوي، وله باع في الحديث النبوي، وإجازات في الكتب الست، والموطأ... قرأ على كبار علماء الهند، مثل الشيخ عبد الحق الأعظمي، شيخ الحديث بجامعة دار العلوم، وأخذ عن علماء شنيقطة بالمدينة، وهو الآن منقطع للتدريس بالحرم النبوي الشريف، وله حوالي عشرين كتابا، ما بين تصنيف وتحقيق. وتلاميذه لا يكادون يحصون.

يتميز -حفظه الله- بسلامة الصدر، وطيب الكلام، وقوة الحياء، والزهد في الدنيا، والصبر على المعلم، والوسطية والاعتدال، جزاه الله عنا خيرا، وبارك في علمه وعمره.!!

⁹⁸ ولد الفقيه العلامة الحاج البشير رحمه الله بإقليم تارودانت عام 1925م، وتوفي عام 2006م بالدار البيضاء. درس على كبار فقهاء سوس، ونبغ في العلوم الشرعية، ودرس في المعاهد، وشارط في المساجد، وتخرج على يده كثير من الأساتذة والفقهاء والوعاظ، ومنهم: الفقيه الشاعر الدكتور اليزيد الراضي، رئيس المجلس العلمي بتارودانت، والأستاذ العالم الدكتور الحيان، رحمه الله. والعلامة الشيخ محمد زحل، ونجله البار، الأستاذ الدكتور محمد عز الدين، الخطيب والواعظ المرموق، بالمجلس العلمي المحلي (الدار البيضاء)، وهو (العلامة البشير) من أعمام أختينا الوفي، الأستاذ الفاضل، محمد هشام جودت، المرشد بالسجون الفرنسية.

⁹⁹ خلافا لبعض طلبة اليوم، الذين لا يراعون حق والديهم؛ بلّة شيوخهم ومعلميهم... وربما سافروا الأيام والليالي ذوات العدد، دون توديع والديهم، واسترضائهم، وطلب الدعاء منهم؛ ناسين أخلاق القرآن "فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي..". سورة يوسف. قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: "فلن أبرح الأرض" أي: لن أفارق هذه البلدة؛ حتى يأذن لي أبي في الرجوع إليه راضيا عني".

¹⁰⁰ يُوجد من أهل الوفاء في عصرنا من عُرضت عليه ولايات ورئاسات؛ يسيل لها اللعاب!! فتركها -اختيارا- خيفة الإساءة إلى بعض معلميه ومرييه، أو إخراجهم بالأمر والنهي. وهذا من نواذر الزمان؛ فإن كثيرا من طلبة العلم- والعياد بالله- ائبلوا بالترأس؛ فعاملوا أكاربهم معاملة الند لند، والقرين للقرين، وقالوا بلسان الحال والمقال: "نحن رجال وهم رجال!!". ورحم الله الإمام الماوردي القائل في كتابه النفيس: "أدب الدنيا والدين" ص: 81 "...قلما تجد بالعلم مُعجبا، وبما أدركه مفتخرا، إلا من كان فيه مُقْتَصِرًا؛ لأنه قد يجهل قدره، ويحسب أنه نال بالدخول فيه أكثره! فأما من كان فيه متوجّها، ومنه مستكثرا؛ فهو يعلم من بُعد غايته، والعجز عن إدراك نهايته، ما يصدّه عن العُجْب به، وقد قال الشعبي: العلم ثلاثة أشبار، فمن نال منه شبرا شتمخ بأنفه، وظنّ أنه ناله!! ومن نال منه الشبر الثاني صغرت إليه نفسه، وعلم أنه لم ينله. وأما الشبر الثالث فهيهات! لا يناله أحد أبدا" انتهى..

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي -رحمه الله- ("صفحات من صبر العلماء" لأبي غدة 379): "ومن علامات العلم النافع أن صاحبه لا يدّعي العلم، ولا يفتخر به على أحد، ولا ينسبُ غيره إلى الجهل، إلا من خالف السنة وأهلها فإنه يتكلم فيه غضبا لله، لا غضبا لنفسه، ولا قصدا لرفعها على أحد."

التفوق على أقرانه، وتلاميذه- كما يقول العارفون به- وهذا هو العلم، وإلا فلا ولا. هذا هو الميراث النبوي، الذي وُثِّقَ سيد الأنبياء، وإمام العلماء محمد صلى الله عليه وسلم.

وكنْتَ إذا تأملتَ وجهه (وجه السيد البشير) ذكرت العلماء المتقدمين، وأهل الله الصالحين¹⁰¹!!- كما قال عارفوه-، وما عُرف عنه -غفر الله له- تعصب لمذهب، أو حزب، أو طريقة، أو قبيلة، أو ... بل كان ينصح للجميع، ويلين للجميع، ويُداري الجميع - تأسياً بسيد الخلق، وحبیب الحق- وأعظم به من خلق!!¹⁰²

ولقد رأى القاصي والداني كيف رفع الله قدر هذا الأستاذ، ووضع له القبول في الأرض -حيا وميتا- وجنازته أبلغ شاهد!! ورحم الله الإمام أحمد الشيباني الرباني، القائل: **"...بيننا وبينكم الجنائر"¹⁰³.**

قلت- غفر الله لي:- وهذا ثواب كلِّ من تواضع لله، وعظَّم حُرْمَةَ شيوخه ومربيه، وأساتيذه ومعلميه، وأوفى بعهدهم.. ابتغاء وجه الله، حتى وإن خالفهم-أحياناً- في الرأي والاجتهاد، وأسعفهم بالنصيحة والانتقاد.

اللهم اغفر لنا وله ولوالدينا، وللمرينا، ولحبينا، وللبغضينا-فيك- ولجميع المؤمنين والمؤمنات، واحشرنا معهم في روضات الجنات !... آمين..

• اذكر-أخي المتعلم- أستاذك في غيبته بألفاظ التقدير والتوقير، كأن تقول: قال شيخنا، أو أستاذنا، أو معلمنا، أو قال الفقيه، أو الأستاذ، أو الشيخ¹⁰⁴، ولا تذكره باسمه المجرد، اليابس، الجاف، كما يفعل الأجلاف؛ فإن ذلك ليس من أخلاقنا وأذواقنا- قولاً واحداً- وإن جادل المجادلون، وكره الكارهون¹⁰⁵.

=وأما من علمه غير نافع فليس له شغل سوى التكبر بعلمه على الناس، وإظهار فضل علمه عليهم، ونسبهم إلى الجهل، وتقصمهم ليرتفع بذلك عليهم، وهذا من أقيح الخصال وأردتها. وربما نسب من كان قبله من العلماء إلى الجهل والغفلة والسهو، فيوجب له حُبَّ نفسه وحُبَّ ظهورها: إحسان ظنه بما، وإساءة ظنه بمن سلف. وأهل العلم النافع على ضد هذا، يُسيئون الظنَّ بأنفسهم، ويُحسنون الظنَّ بمن سلف من العلماء، ويُقرؤون بقلوبهم ولأنفسهم بفضل من سلف عليهم ويعجزهم عن بلوغ مراتبهم، والوصول إليها، أو مُقاربتها، وما أحسن قول أبي حنيفة وقد سُئل عن علقمة والأسود: أيهما أفضل؟ فقال: والله ما نحن بأهل أن نذكرهم فكيف نُفضِّل بينهم!!، وكان ابن المبارك إذا ذُكر أخلاق من سلف ينشد:

لا تُعرضنَّ لذكرنا مع ذكرهم ليس الصحيح إذا مَشَى كالمُتَعَدِّ

¹⁰¹ وما تحسرتُ على شيء تحسرتُ على عدم لقائي به وبأمثاله من العلماء الصالحين، وأرجو أن تجمعنا القيامة، فضلاً من الله ورحمة!

¹⁰² للمزيد من المعلومات حول سيرة العلامة البشير راجع- إن شئت- : كتاب " الفقيه العلامة الحاج البشير... " مطبوعات المجلس العلمي لتارودات

¹⁰³ بيننا وبينكم الجنائر ص: 7 أزهرى أحمد محمود

¹⁰⁴ ورحم الله من قال: " وإذا امتلأ القلب حُرْمَةً ووقارا تعلم اللسان العبارة".

¹⁰⁵ لا أحد يجهل أننا في عصر العولمة، والمادية، والفابريك، والتويت،... ولا نعلم-إطلاقاً- بعودة أخلاقيات العلم، كما كانت في السابق؛ لأسباب كثيرة ومركبة: أهمها: النمو الديموغرافي، وانفصال الجامع عن الجامعة، وجفاف المشاعر، وتضخم الأنا، وطغيان المادة على الروح، وندرة القدوات، وقيام المؤسسات التعليمية على الرواتب والأجور، إما من طرف الدولة ذاتها، (كما في الجامعات والمدارس النظامية)، أو من طرف أولياء التلاميذ، (كما في المساجد والمعاهد)، أو من طرف التلاميذ أنفسهم، (كما في التكوين الحر)، ومعلوم أن الذي يدفع لك أجراً (مادياً أو معنوياً) لا بد أن يجاسبك، ويراقبك، ويأمرك وينهاك، ويُحَمِّلُك أحياناً مسؤولية إخفاقه، أو إخفاق ابنه،- بحق أو باطل- وبذلك يُسقط حجاب الهيبة والهيبة، وتتحول علاقة المعلم بالمتعلم إلى علاقة أخرى، سمها علاقة صداقة، أو مصلحة، أو تسلية... أو ماشئت-.

- وردَّ غيبيته، وراع حرمة، - ما استطعت - فإن لم تستطع فاصمت صمت القبور، أو قم -حالا- من مجلس الزور "وذلك أضعف الإيمان" وإياك ثم إياك أن تشارك في خفض من رفعك، واقتلاع من غرسك. حذار حذار من هذا الهبوط والسقوط !!
- واعلم - رحمك الله- أن حقَّ الأستاذية لا يسقط بالتقدم¹⁰⁶ أو التقاعد، أو غير ذلك ... - وحق الأستاذ - كما هو معلوم- التكريم والتعظيم، أو -على الأقل- كفُّ الأذى عنه؛ فإن كان ولا بد من بيان غلط الأستاذ، أو شططه، أو بدعته، أو ضلاله- لا قدر الله- فاترك هذا الواجب الكفائي لأقرانه، وهم أولى بذلك وأجدر.

فإن تعين عليك البيان شرعاً؛ فاكثف بالضروري المفيد، الذي لا بد منه، (مع التألم والتحلُّم، والاستغفار والاعتذار).

ولا يجرمُكَ شنان الشيخ على أن لا تعدل؛ بل قدم لبيانك بذكر سبِّقه، وفضله، وبلائه في العلم والعمل. وهب(افرض) أنه أتى بفاحشة مبينة!! -لا قدر الله- ألا تنصحه لله، وتستتر ما ستر الله؟ افعل ذلك - رحمك الله- مع جميل الأدب، وخالص النية، وعظيم الإشفاق!

وادع له بالصلاح والرياح -ابتغاء وجه الله- ولا تشمت به الأعداء، واعتبر بحاله، وتألم لمآله! ولا تحجره بلا مصلحة، ولا فائدة. وسد خلته، وعالج مرضه، وشيع جنازته، وتفقد أولاده وأحفاده، ولا تعاقبهم بجريرة أبيهم.

واشكر جميع أساتذتك ومريئك أمام تلاميذك ومحبيك، سرا وجهراً؛ من باب القدوة والتلقين، ولا تُعوِّدْهم الولوغ في الأعراض؛ حتى وإن بدا لك ذلك جائزاً ومباحاً، أو واجباً وفرضاً.. فإن الشيطان يُلِّس الحق بالباطل، والخطأ بالصواب، والدين بالدنيا. وكتاب "تلبس إبليس"¹⁰⁷ كاف في البيان، فكيف إذا أضفت إليه "إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان"¹⁰⁸.

وليس سهلاً- يا إخوتي- أن يقول العبد: أبغض في الله، وأحب في الله، وأعطي لله، وأمنع لله... هذه- سادتي وأساتذتي- دعاوي عريضة.. تحتاج إلى بينات..، وأني لنا ذلك!؟

=وهذه الوضعية- كما نرى- وضعية عالمية، لا فرق فيها بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب؛ إلا في أمور تقليدية شكلية، تتلاشى يوماً بعد يوم، لصالح النفعية والمادية، والميوعة والتحلل. وما لم يتحرر رجال التربية والتعليم من ضغوط المجتمع، وإكراهات المهنة، وعُقد النقص، فإن أخلاقيات العلم ستسقط حتماً، طال الزمان أم قصر، وبسقوطها ستسقط العلوم والفهوم، وستتحول مدارسنا إلى مسارح للنعف، ومصانع للفشل والإخفاق.

فيأياها المتعلم الغيور! يامن يعامل أساتذته وشيوخه بأدب وذوق! أعلم أنك اليوم في جهاد أخلاقي، أدبي، تربوي، تؤجر عليه، وتُعبط عليه، وتسعد به في دنياك وأخرأك، والله تعالى يتولانا ويتولاك!!

يامن يخاطب معلميه ومربيه بألفاظ التوقير والتقدير، في عصر التقصير والتخسير! أعلم أنك اليوم سباح ماهر، بطل مغوار، تسبح ضد التيار، و" لا يسبح ضد التيار إلا الأسماك الحية!" -كما قال الحكماء-

¹⁰⁶ وما أذكره -وأنا العبد المقصر في حقوق الرب والعبد- أنني صادفت قديماً بعض أساتذتي في مناسبات مختلفة، ومنهم مُستون هرمون...!!، فلما دنوت منهم، وعاملتهم معاملة التلميذ لمعلمه؛ أصيبوا بالذهول، وبكوا بكاء الفرح..، واستعادوا الذكريات...، وأسمعوني من الدعاء والثناء ما أحمد الله عليه..، وأرجو من أبنائي وبناتي أن يفعلوا أحسن مني؛ ففي ذلك من البشارة ما لا تشرحه عبارة.

¹⁰⁷ لابن الجوزي أبي الفرج المتوفى سنة 510 هـ

¹⁰⁸ لابن القيم الجوزية المتوفى سنة 751 هـ

نعم، هذا المستوى السامق - والله أعلم - بعيد على أمثالنا. في زماننا ومكاننا. والسلامة لا يعدلها شيء. عافانا الله وإياكم، وسلّمنا وعصمنا !

• ولا حرج في مخاطبة العالم المعلم، أو الشيخ الكبير بالوالد أو بالأب، على معنى أنه بمنزلة في الاحترام والإكرام، (لا أب في النسب)¹⁰⁹. وبذلك جرى العمل في بلاد الإسلام، من قديم الزمان، وخاصة في بلاد الحجاز!! وكثيرا ما سمعناهم هناك يقولون: أفتى "سماحة" الوالد ابن باز...، وقال "سماحة" الوالد ابن باز.... (يعنون بذلك الوالدية العلمية، أو ما يصطلح عليه في القانون الإيرلندي بالرضاع الأدبي)¹¹⁰..

ومن شَهِد¹¹¹ الكلام، لأستاذ الجيل، الشاهد البوشيخي¹¹² (بارك الله في عمره) في حقّ حَرِّجِه وحبِّه الدكتور فريد الأنصاري، يرحمه الله: "أما ابني البار فريد فهو كاسمه فريد،... الحمد لله الذي أخرج من صليبي العلمي من هو خير مني!!"¹¹³.

وقابل فريد الفريد -بحق - هذا التواضع الفريد من شيخه البوشيخي بتواضع مثله، أو أكثر منه، فكان يعظمه جدا، ويتواضع له، ويُنَوِّه به في مجالسه وكتبه، ويصفه بـ "أستاذنا العلامة الدكتور..."¹¹⁴، ولا يرضى أبدا بحال أن يقدمه أحد على أستاذه الرائد، سيدي الشاهد، ويغضب غضبا شديدا على من خالف ذلك، ولو كان من أقرب المقربين.. - كما حدث العارفون به - .

¹⁰⁹ أما قولهم: "الأب الروحي" فإنه مصطلح يحتمل أكثر من معنى. وقد ورد النهي عن الأمور المشتبهة، استبراء للدين والعرض - كما هو معلوم - وقد ورد النهي عن الأمور المشتبهة، استبراء للدين والعرض، ومع ذلك فلا ينبغي التشدد في مثل هذه الأمور، لعموم البلوى، ومشقة الاحتراز. والموفق من وفقه الله

¹¹⁰ انظر حلية العلم، للقاضي بكر أبي زيد.

¹¹¹ الشَّهِد: معناه العسل المخلوط بالشمع... والشَّهْدُ والشُّهْدُ: العسل مادام لم يُعصر من شمع واحدته شَهْدَةٌ وشُهْدَةٌ.

¹¹² الأستاذ العلامة، الشاهد البوشيخي الفاسي، أشهر من علم، تخرج على يده العشرات من الدكاترة، والأساتذة، والمربين، من المشرق والمغرب، ونفع الله به الخاصة والعامة. وهو صاحب فكر رشيد، ونظر ثاقب... جمع الله له المعاني الغزيرة في الألفاظ اليسيرة، وآتاه الحكمة، وحبب إليه "المصطلح"...! وهو رئيس معهد الدراسات المصطلحية بفاس..

وهو من ذرية الخليفة أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، (من جهة الأب)، وأمه هبطية شريفة، (من ذرية الإمام الهبطي). كما أخبر -حفظه الله-. أشركه الله في أمره، وشد أزره بشقيق عالم فقيه قدوة.. هو العلامة الدكتور سيدي أحمد البوشيخي، شفاه الله. نفعا الله بعلمهما، وختم لنا ولهما بالحسنى. آمين.

=للمزيد من المعلومات حول الأستاذ سيدي الشاهد انظر كتاب (الأستاذ الباحث الدكتور البوشيخي، سيرة علمية) مطبوعات معهد الدراسات المصطلحية فاس المغرب.

¹¹³ مقدمة رسالة "المصطلح الأصولي عند الشاطبي" الدكتور فريد الأنصاري.

¹¹⁴ مجالس القرآن، للأنصاري ص: 83-: ويقول رحمه الله أيضا في رسالة متداولة -تقطر أدبا-: "وأما معلمي ومرشدي؛ فما زلت إلى الآن - وإلى أن ألقى الله إن شاء الله - أقبّل رؤوسهم وأيديهم، وأجلس متعلما عند أقدامهم، وأعوذ بالله أن أنكر فضلهم! رحم الله من مات منهم! وبارك في عمر من بقى!" وقال في ندوة علمية مسجلة (بالمعنى): "أشتاق أشتاق.. إلى معانقة الشيخ الأستاذ....، وأحب أن يمس صدره صدري، ثم عقب قائلا: لا لا أستغفر الله، هذا سوء أدب مني، هذا لا يكون.. فمثلي لا يعانق مثله؛ بل يُعَمِّل يده ورأسه!"

وحدثني -رحمه الله- قُبَيْلُ سفره (إلى الله)، أنه سافر من مكناس إلى الرباط؛ (وهو مريض) من أجل عيادة من يعتبره أستاذا له، ألا وهو العلامة الفقيه سيدي مصطفى بن حمزة. وكان يثني عليه، ويجلُّه..، وإن اختلف معه في الرأي والاجتهاد!.

وهكذا يكون المعدن الصافي النفيس..، هكذا يكون الوفاء والصفاء..! وهذا - سادتي- يزدهر العلم والأدب، وتحلو الأيام وتصفو. نسأل الله تعالى أن يعرفنا بأقدار أنفسنا، ويكرمنا بخلق التواضع والوفاء!.

● وتحدث العلماء في تراجمهم أيضا عن "الأمومة العلمية" فقد ذكر الإمام السخاوي في ترجمته أستاذه المريية، ست الركب، (ابنة علي ابن حجر)، وأثنى عليها، وقال: "هي أمي بعد أمي.."¹¹⁵. وكانت عالمة البارزة آمنة بنت حجو (زوجة الإمام عبد الله الهبطي) تعامل طلاب زوجها في معهد المواهب معاملة الأم الرؤوم¹¹⁶ - كما هو معلوم-.

وأغلب نساء العلماء والفقهاء قديما، كن أمهات للطلبة؛ من حيث الرعاية والعناية. وقد أدركنا شيئا من هذه الأمومة النادرة في أيام الطلب، واستمتعنا بها، وعشنا في ظلها..ونكاد نفتقدتها اليوم؛ لأسباب مركبة يطول شرحها.

وأقول ههنا (اعترفا بالجميل، وخرقا للعادة، وتأسيا بالأئمة): إن الفضل بعد الله تعالى في تحريري من الأمية، يعود إلى الوالدين، والمعلمين، ثم إلى "أمي بعد أمي". ألا وهي أختي الكبرى، (فاطمة) أم البنين - سلّمها الله- التي أوتني وكفتني، وسهرت على تربيّتي، سنوات طويلة، بلا منّ ولا أذى، جزاها الله عني جزاء الخير والإحسان!!

● ويجوز للعالم أن يقول لتلميذه: يا بني! أي: أنه في محل الإبن، من باب الحنّانة والعناية، وإنزاله منزلة الولد في العطف والرعاية. وفي ذلك ما لا يخفى من المعاني التربوية، العميقة عمق البحار. وثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينادي خادمه أنس بـ"يا بني"¹¹⁷، وهو أنس بن مالك. وبوب عليه النووي رحمه الله فقال: "باب جواز قوله لغير ابنه: يا بني، واستجابته". وقال ابن عباس رضي الله عنهما لبعض من أراد أن يسأل عن شيء استحي من ذكره: "إنما العالم بمنزلة الوالد، فما تفضي به إلى والدك فافض به إلي!".

¹¹⁵ الحافظ ابن حجر عبد الستار الشيخ ص: 35.

¹¹⁶ انظر الحركة السياسية والاجتماعية والفكرية في شفشاون ونواحيها، للأستاذ العافية.

¹¹⁷ كان يناديه صلى الله عليه وسلم بـ " : يا بُني " أو " يا أنيس " - وهي صيغة تصغير للتدليل - يقول أنس : خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين، والله ما قال لي أف، ولا لم صنعت؟ ولا ألا صنعت" - صحيح البخاري رقم 5691

وجُلُّ الأئمة المتقدمين رحمهم الله كانوا يسلكون مع تلاميذهم مسلك الأبوة والجدودة، رعاية، شفقة، ورحمة، ومن أقوالهم المألوفة: تعال يا ولدي، إقرأ يا ولدي، كيف حال ولدي؟ انتبه يا ولدي! سلمك الله يا ولدي! هل أكلت يا ولدي! فتنزل هذه الكلمات بردا وسلاما على القلوب!!، ويقابلها التلميذ بما يناسبها من ألفاظ التكريم والتفخيم؛ فتحلو الحياة وتطيب! وتزهو وتزدهر¹¹⁸!!.

● أما إذا دعاك معلمك ومربيك إلى بيته أو مكتبه لغرض ما، واستأنس بك، وفرح بقدمك، وقدم لك ما يُقدّم الوالد لولده؛ فأجب، ولا تتردد؛ على أن تكون خفيف الظل، باسم الثغر، ذكيّ الفؤاد، قليل الكلام، كثير الاستماع. وإياك أن تقحم نفسك فيما لا يعينك، أو تتجاوز حدك وقدرك؛ فيملك أستاذك. واعتبر بقول الحكيم: "من رفع نفسه فوق السوق رده الله إلى سعره".

● وإذا انتدبك أستاذك للخروج معه في نزهة أو سفر، وأدناك منه - لمزية يراها فيك - فلا تتردد في إجابة دعوته، وتلبية رغبته، وتفريج همه، مع معرفة حد ذلك ومداه، وكتمه عن عداه. وإياك أن تفسد عليه الحال، أو تضجره بسؤال، ولكل مقام مقال. ولنذكر دائما بأن العلماء بشر مثلنا، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ويمتلون ويعتمئون، ويفرحون ويحزنون، ويصيبون ويخطئون.

واعتبر أو تسلَّ - إن شئت - بهاتين القصتين الواقعتين.

أما الأولى: فإنه كانت قد كثرت علينا في السنوات الخوالي نوازل الناس في أوروبا، فأجبنا على الواضح البين منها - اضطرارا لا اختيارا - واحتفظنا بالعيوض المقفل منها؛ لعرضه على المجالس العلمية، بالبلاد الإسلامية. وشاء الله أن نجتمع في إجازة صيفية بأحد أعيان تطوان، وفقهائها الفرسان؛ فديرنا حيلة (شرعية)! للاستضاءة بعلمه، والنهل من معارفه، - أنا وأحد الزملاء¹¹⁹ - وكانت الحرارة مفرطة، والمدينة مكتظة..؛ فعرضنا على الأستاذ المعمر أن يرافقنا إلى جبل بوغان، (بضاحية تطوان)، حيث الهواء العليل، والماء السلسبيل! فرحب بذلك، وسررنا سرورا عظيما، وفاضت علينا علومه ومعارفه، ونكأته وأشعاره.

وما أن شرعنا في تنفيذ "الحيلة"، وطرح النازلة بعد النازلة؛ حتى انتفض الأستاذ كالأسد المصور، وصاح في وجوهنا: يا..! يا..! أيش هذا؟! هل هذه نزهة أم امتحان؟! وكانت هذه العبارة كافية في الزجر والتأديب، والتكيف مع أحوال العلماء!.

فلتكن هذه القصة عبرة لطلاب العلم، **"والسعيد من وعظ بغيره"**! كما جاء في حديث الإمام مسلم.

¹¹⁸ وفي الأوساط الغربية اللبرالية قد لا تُستساغ مثل هذه الألفاظ والتعابير؛ لأسباب نفسية وتاريخية عميقة. لا مجال لذكرها هاهنا. وليس من شأن الربانيين

المقاصدين التشدد في الجزئيات، والمصطلحات، والباسها ثوب الفرضية والوجوب. والحكمة وضع الشيء في محله. وألمهم من ألهمه الله.

¹¹⁹ هو الأخ الحافظ لكتاب الله، الداعية الواعية، الفارئ، الشيخ أحمد محمد داود الودراسي، الأندلسي، المالقي. (زميل الدراسة، والجار القديم)، حفظه الله، وبارك في علمه وعمله.

وأما الثانية: فإننا كنا نستأنس كثيرا بمجالس أستاذنا الدكتور أيمن رشدي سويد - أعلى الله مقامه - ونطرب لحنه روحه، وغزارة علمه، وقربه من طلابه، وربما أمللناه، وأثقلنا عليه أحيانا- غفر الله لنا- فعرضنا عليه الخروج معنا إلى بحيرة؛ فاستجاب. مشكورا. وما أن غبنا عن المدينة وصحبها، ودخانها وبخارها؛ حتى انطلق الأستاذ، وكأنه نَشِط من عِقَال، وغلبه الوجود والحال، وفاضت عليه الخواطر، واغتبط برؤيته كل واقف وسائر!! إلى أن انبعث فينا. مع الأسف. طالب سؤال، وأخ عجول، كدّر أستاذنا بتعقيب معيب، وسؤال غريب!! غفر الله لنا وله! وأصلحنا وأصلحه!

أقول: وسؤال العلماء. يا إخواني. مطلوب؛ واغتنامهم محبوب؛ ولكن اذكروا -ذكركم الله بخير- أن المناسبة شرط، وأن الحكمة وضع الشيء في محله، ولكل مقام مقال!!

● واعلم - رحمك الله- أن التعظيم الحقيقي للعالم، لا يكون فقط باختيار اللفظ المناسب لمخاطبته - مع أن هذا ضروري ومهم-؛ ولكن بحفظ وصاياها، ونشر علمه، والصدق في محبته، والوفاء له، والذب عن عرضه، في حضوره وغيبته. دون تلؤن، أو تطؤس، أو تبديل أو تغيير. فكم من طالب يُقبَل اليدين إلى الكوعين! والرجلين إلى الكعبين! ويتظاهر بالوفاء لأستاذه وشيخه، فإذا غاب عنه قلب له ظهر المِحْجُ¹²⁰، وجلب عليه الفتن، واستعمل في أذيته كل فن؛ بل وقال عنه ما لم يقله مالك في الخمر!.

● وثمة من لا قصد له من لقاء الشيخ وتقبيل يده، ورأسه، وعذبة عمامته، إلا أن ينال منه إجازة "تبرك"، أو "تورك!" على مذهب من قال: إذا كنت مغمورا فتعلق بمشهور!. وهناك من يتمسك حتى يتمكن من علم الشيخ وصنعتة، أو ينقص عنه، أو يزيد قليلا، فإذا قدمه شيخه في كلمة، أو مناسبة، -من باب التمرين والتوريث- وأخذ "الميكروفون"، وشخصت إليه العيون؛ نسي ماضي جهله، وفضل أستاذه، وحق والديه ومربيه، وضاق صدر المسكين -المسكون بالعجب والغرور- بحضور أستاذه ومربيه، وانعقد لسانه -فُضَّ فوه- عن النطق بلفظة شكر لمن أحلسه في هذا المكان، وعلمه القرآن والبيان! وكأنه -أصلحه الله وشفاه- قد وُلد عالما، مقرئا، خطيبا، مفتيا، مستغنيا! وصدق الله: إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ، أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْتَى¹²¹.

¹²⁰ المِحْجُ: التُّرْس. ما يُتَبَرَسُ به ضد العدو، والجمع: مِحْجٌ.

قَلَبَ فَلَانَ مِحْجَةً: أَسْقَطَ الْحَيَاءَ وَفَعَلَ مَا شَاءَ.

وَقَلَبَ لَهُ ظَهْرَ الْمِحْجِ: عَادَاهُ بَعْدَ مَوَدَّةٍ.

انظر: المعجم الوسيط

¹²¹ سورة العلق الآية: 7

ورحم الله القائل :

فياعجبا لمن ربيت طفلا
ألقمه بأطراف البنان
أعلمه الرماية كل يوم
فلما استند¹²² ساعده رماني

وقال الإمام الشوكاني -شاكيا-:

هم أخذوا عني العلوم بذلة
فلما حووها عاملوني بغلظة
هم أظهروا عند اللقاء ليونة
فلما تولوها أظهروا كل شدة

أدب القيام للعلماء

والقيام للأكابر احتراماً، (بلا انحناء ولا تكتيف)¹²³، من المسائل المختلف فيها بين أهل العلم¹²⁴. ولكل رأيه واجتهاده، فمن قائل بالمنع، ومن قائل بالجواز، ومن قائل بالتفصيل، وقد بحث الإمام الشاطبي هذه المسألة في كتابه "الموافقات" بحثاً عميقاً، ثم رجَّح المنع، وتابعه في ذلك تلميذه (بالقراءة) الفقيه المقاصدي الشريف سيدي أحمد الريسوني في "نظرية التقريب والتغليب". ولاين الحاج الفاسي في هذه المسألة كلام بديع في "المدخل" يُرجع إليه. وكذا الإمام النووي، وابن عبد السلام، وغيرهم من الأعلام. ونكتفي هنا بكلام نافع، وتقسيم ماتع، ذكره الفقيه المفسر العلامة سيدي عبد الرحمن ناصر السعدي في كتابه "مجموع الفوائد واقتناص الأوابد"، وخلاصته: أنه يجب التفريق بين القيام للرجل، والقيام إليه، والقيام عليه.

فأما الأول: فمكروه، أما إذا تضمن تركه مفسدة؛ فلا بأس به؛ بل استحبه طوائف من أهل الفضل للعلماء والولادة ونحوهم.

وأما الثاني: وهو القيام إليه، كقيام الإنسان لمن قدم من سفر، أو لمن استضافه، أو لمن أراد أن يهنئه، أو يعزيه؛ فهذا لا حرج فيه؛ بل هو تابع للقصد الذي قام إليه لأجله.

وأما الثالث: فهو القيام عليه؛ (أي القيام على رأس الرجل القاعد؛ تعظيماً له) فهو محرم.

(ويستثنى من ذلك طبعاً الحارس، والخادم، ومن في حكمهما)

فهذا الفرقان بين الأمور الثلاثة، يوجب لك أن تعطي الأمور حقها من التأمل، وتنظر الداعي والسبب الحامل عليها، كما تتأمل ما يترتب عليها من الخير والشر والمصالح والمفاسد. والله أعلم".

¹²² استند (بالسين الساكنة) خلافاً للمشهور.

¹²³ التكتيف: وضع اليدين على الصدر كهيئة الصلاة، وقد انتقد ذلك العلامة المربي الفقيه أحمد زروق في "عدة المرید الصادق" فانظره.

وإليك هذه الفكاهة: كنا قديماً في مجلس شيخنا الدكتور أمين سويد؛ فدخل عليه طالب (على هيئة انحناء وتكتيف)؛ فقال الشيخ على البديهة: "سمع الله لمن حمده!! فضحك الجميع!!، وفهم الطالب أن الشيخ يقول: ارفع رأسك.

¹²⁴ ورحم الله الإمام المقرئ الأندلسي، القائل: "تعلم الخلف يتسع صدرك".

المعاقبة و التقبيل (محاولة تأصيل)

• وتقبيل يد العالم الصالح القدوة، أو جبهته، أو كتفه؛ تقربا إلى الله تعالى، سنة ماضية عند أهل الإسلام، تؤخذ من دلالة الحديث السابق (**ويعرف لعالمنا**)، وغيره من الأحاديث الصريحة الصحيحة، وليست عادة مغربية، أو مشرقية، أو بدعة "صوفية"، أو "سلفية" - كما يقول البعض - وقد بوب البخاري رحمه الله في (الأدب المفرد) بقوله: "باب تقبيل اليد"، وذكر أن عبد الرحمن بن رزين قال: "مرنا بالزبدة، فقيل لنا: هاهنا سلمة بن الأكوع، فأتيناها فسلمنا عليه، فأخرج يديه، فقال: **بايعتُ بهاتين نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم، فأخرج كفا له ضخمة، فقمنا إليها، فقبَّلناها**"¹²⁵. وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

وإنكار إمامنا مالك - رحمه الله - للمعاقبة والتقبيل، محمول على عدم بلوغه الحديث المروي في ذلك¹²⁶، **"ومن خالف ما لم يبلغه فهو معذور"** كما قال الفقيه الإمام ابن تيمية الحراني في "الفتاوى الكبرى".

ولربما كره الإمام مالك - رحمه الله - تقبيل اليد، إذا كان ذلك على وجه التكبر والتعظم، لا على وجه القربة إلى الله، كما أجاب الفقيه الأبهري، إمام المالكية في عصره بالعراق.

وجاء في كتاب ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح الحنبلي: **"وتباح المعاقبة وتقبيل اليد والرأس تدينا وإكراما واحتراما"**. وجاء في نفس الكتاب: **"سئل أبو عبد الله أحمد بن حنبل: ترى أن يقبل الرجل رأس الرجل أو يده؟ قال: نعم"**. انتهى.

وقال الإمام ابن الجوزي في "مناقب أصحاب الحديث": **"ينبغي للطالب أن يبالي في التواضع للعالم. ومن التواضع تقبيل يده"**.

وقال الإمام الفقيه أبو حامد الغزالي في إحياء علوم الدين: **"ولا بأس بقبلة يد المعظم في الدين تبركا به، وتوقيرا له"**. أما الإمام الورع يحيى النووي الشافعي - رحمه الله - فقد ذهب إلى استحباب تقبيل يد العالم، تقربا إلى الله تعالى بذلك، كما ورد في كتابه: (الأذكار)، وهو رأي سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام أيضا، كما حرر ذلك في كتابه "قواعد الأحكام".

¹²⁵ وهو حديث حسن الإسناد، كما ذكر العالم الأوروبي، المحدث، (الساعاتي)، سيدي محمد ناصر الدين - نفعنا الله بعلمه - في تعليقه على كتاب "الأدب المفرد" للإمام البخاري.

ورأيه - غفر الله له - الحواز، إن كان ذلك على سبيل النادرة، ولم يؤد إلى المجر الكامل لسنة المصافحة والمعاقبة، (كما جاء في سلسلته الصحيحة). وكان تلاميذه (ومريده) وزواره يُقبَلون رأسه، رغم كراهيته لذلك؛ تقديرا لعلمه وسنه. رحمه الله.

¹²⁶ كما حرر المحدث الغماري، الشريف التحكاني، أحمد بن الصديق (في رسالة خطية، نشرها خزَّيجه الشيخ عبد الله التليدي - الكرفطي - في كتاب: ((در الغمام الرقيق)).

وأعطى الإمام النووي القدوة من نفسه في تقدير شيوخه، وشيوخ شيوخه، كما ترى ذلك جليا في كتابه ((المجموع))؛ وهو يثني على شيخه النحوي ابن مالك، صاحب الألفية، وكما تراه أيضا في جُل كتبه يدعو لوالديه، ولسائر من أحسن إليه !!.

وقد خصص - رحمه الله - بابا كاملا لهذا الغرض، ضمن كتابه النافع "رياض الصالحين"¹²⁷ بعنوان: "باب توقيير العلماء والكبار وأهل الفضل وتقديمهم على غيرهم، ورفع مجالسهم، وإظهار فضلهم".

وإلى جواز تقبيل يد العالم الصالح، ذهب الحافظ القاضي ابن حجر العسقلاني في "فتح الباري، شرح صحيح البخاري" واستدل على ذلك بأدلة كثيرة، تطلب في بابها. وهو رأي المذاهب الأربعة عند التحقيق، كما جاء في فتاوي دار الإفتاء المصرية. وهو اختيار جُل علماء المسلمين، سنة وشيعة، عربا وعجماء، سلفا وخلفا.

وعامة علماء القرويين والأزهر والزيتونة والمدارس العتيقة يقولون بالتقبيل، ويعملون به -توقيرا وتقديرا- وينقلونه عن شيوخهم، ولا يعرفون غيره.. ومن الناس من يقبّل اليد، (وهذه عادة مغربية)، ومنهم من يقبّل الكتف، وهذه (عادة عصرية)، ومنهم من يقبّل الرأس، (وهذه عادة نجدية)، ومنهم من يقبّل الأنف (وهي عادة خليجية) ومنهم من يكتفي بالانحناء، (وهذه عادة الإخوة الأفارقة السود، وبعض الآسيويين أيضا).

وحني الظهر عند اللقاء وفي التحية ممنوع شرعا، سواء فُعل عادة أو تدينا، - كما قال العلماء - إلا لمصلحة أو ضرورة.

وليس الانحناء للتقبيل من هذا القبيل، كما أنه ليس كل من أحنى ظهره يكون ساجدا أو راکعا لغير الله - كما يتصور البعض - والعبرة بالمقاصد والنيات؛ فوجب التفريق.

- ومن المتشددين في مسألة التقبيل - من المعاصرين - العالم الورع، الشيخ الطيب، محمد أحمد المقدم المصري، نفعنا الله بعلومه! وله في ذلك رأي مشهور، ينكره شيوخه، وتلاميذه، ويعملون بخلافه، وهو مع ذلك من المعظمين جدا للعلماء والصلحاء، حالا ومقالا. وله كتابات متميزة في ذلك، تخالف رأيه المعروف.¹²⁸ وصدق الله "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا"¹²⁹

¹²⁷ "رياض الصالحين" من الكتب المباركة، النافعة، التي ثبتت الصلاح، وتؤنس الأرواح، وسره عجيب.. فالله الله ياطلبة العلم في هذا الكتاب !!
¹²⁸ ومن المتحفظين في مسألة التقبيل: الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي الشامي - كما سمعنا ذلك منه ولمسناه عمليا - وأهل الشام - برك الله فيهم - موسومون بتعظيم العلماء والصلحاء، وربما إلى حد الغلو - كما قد يُستشف من كلام الشيخ البوطي - خلافا لبعض الأمصار التي تُضم فيها حقوق العلماء، إلى حد الاستهتار - والعياذ بالله - ولعل الشيخ البوطي قد قال ما قال، بناء على الحال والسؤال، ولو رأى ما رأى غيره؛ لكان له موقف آخر، أو اختيار آخر.

أما الذين ينكرون تقبيل اليد مطلقا، فهم قلة نادرة، وأشهرهم: الدكتور تقي الدين الهلالي الفلالي. وكان - رحمه الله - يزرع من فعل ذلك من الكبار والصغار، ويتشدد إلى حد غريب، نكاية بمشايع الطرق في عصره، وسدا لذريعة الغلو - كما حدثنا الثقات -. والذريعة كما قال أهل العلم: "هي أمر جائز بحسب أدلة الشرع؛ لكنه يجمع إذا أدى إلى مفسدة أو محرم" على غرار ما قاله الفيلسوف الفرنسي المشهور "لامونتين": "البشر يفسدون بأيديهم ما هو بطبيعته حسن جميل!!" ولعل الدكتور قد تراجع عن هذا الرأي في نهاية عمره - كما سمعنا - ...

ومن كره التقبيل من القدامى والمعاصرين، فلربما من باب سد الذرائع - والله أعلم - لئلا يستعمل العوام ذلك مع من لا يستحقه من الأدعياء والمغترين...، والمجتهد مأجور بكل حال.

ومع إجلالنا لعلمائنا الأحياء والأموات؛ فإن سد الذرائع - كأصل عند المالكية وغيرهم - لا يكون . فيما يبدو. هو النهج الأمثل دائما لدفع المفسد والشور، وجلب المصالح والخير؛ بل قد يُفضي التوسع في ذلك أحيانا إلى فساد أبشع، وبلاء أشنع !. وهل هناك مفسدة أعظم من التقدم بين أيدي العلماء، وإخفاء مرتبتهم، والتسوية بينهم وبين تلاميذهم؟!، فلا يبقى ثمة تمييز بين المرابي والمترابي، والعالم والجاهل، والبر والفاجر، والصغير والكبير.. ورحم الله القاضي عبد الوهاب المالكي إذ يقول في هذا المعنى:

وإن ترُفُعُ الوُضَعَاءِ يوما
على الرُفَعَاءِ من إحدى الرزايا
إذا استوت الأسافل والأعالي
فقد طابت منادمة المنايا

أقول - معتذرا -: أليس الأولى أن نعمل هنا بقاعدة فتح الذرائع، بدلا من سدّها، وأن نقبل ما هو بطبيعته حسن جميل، وفي أصله مستحب أو مباح، (من تقبيل ونحوه)، ثم نعالج ما أفسدته أيدي الناس بالتوعية والتنبيه، والتربية والتوجيه؟! . أليس هذا خيرا من الميوعة والجفاء، والجراءة على العلماء؟!

- وإن العجب لا يكاد ينقضي من بعض إخواننا العيارى الذين ينكرون على الناس تقبيل والديهم وشيوخهم ومرييهم؛ (تقليدا لزيد أو عمّر من المعاصرين)، ولا يعذرون إخوانهم المقلدين للأئمة المتقدمين، كالأئمة الأربعة، وأئمة الحديث والفقهاء، كالبخاري، ومسلم، وابن الجوزي، و ابن حجر، والنووي، والأبهرى المالكي، وسلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام... وهلم جرا؛ علما أن هؤلاء - بلا شك - أضلغ بعلوم الشريعة، وأقوى في الرواية والدراية والرعاية، وأدرى بالفروق بين التقدير والتقدیس، والعبادة والعادة، والسنة والبدعة، ورحم الله الإمام الموسوعي محمد الأمين الشنقيطي (صاحب الأضواء) الذي روى عنه تلاميذه أنه قال لأحد الشباب (عندما ناقشه في مسألة من مسائل الحج، ليس فيها دليل صحيح صريح): "أنا مقلد لملك، وأنت مقلد للألباني، ومالك أعلم من الألباني" فبُهِت الشاب.

- وبعض الفضلاء يمنع التقبيل والمعانقة لا لشيء، إلا لأن هذا لم يكن بأرض قومه، ولم ينشأ عليه، ويثقل عليه (طبعاً)!! ولقد حدثنا أحدهم أنهم يجهلون عادة التقبيل في قُطْرهم، ويكتفون بمصافحة الوالدين والجدود، والمرين والأشياخ... ويعجبون ممن يُقبِلُ!! وربما قالوا: ما هذه

السجدة الصغرى؟ أو ماهذه البدعة "الإضافية"؟ ولا ندري - والله - ماذا يفعلون بصبيانهم،
و... !!

ونحن لا ندعو إلى خرق الأعراف والعوائد الاجتماعية، بالقوة والإكراه، ومعاذ الله أن نناضل أو
نقاتل من أجل مسألة ذوقية، أدبية، جزئية، خلافية، (يدور حكمها بين المباح والمستحب).
معاذ الله أن نتشدد إلى هذا الحد، أو دونه. وغاية ما يُرجي من المنكرين للتقبيل (مودة ورحمة)
أن لا يجعلوا أعرافهم وأذواقهم موازين للحكم على الناس، وأن لا يخلطوا بين التقدير والتقدیس،
والعادة والعبادة؛ فليس هذا من ذلك.

• وبعض "المتطرفين" - بالظاء لا بالطاء - يرون أن عادة تقبيل اليد (احتراما) تقليد عربي سخييف،
لا يعرفه الغربيون، وأهل الأناقة والظرافة..!! ويحملون حملة عمياء على من قَبَّل يد الوالدة،
والجدة، والإمام، والعالم، والكبير، والشريف.. ولربما رموه بالجهل والتخلف، ونسوا، أو تناسوا أنه
من كمال الأدب، وعريق الأعراف عند الغربيين، أن يقبَّل الناس يد الراهب، والقسّ، والبابا،
والخبر، والمرأة¹³⁰..، وأن ينحني الرجل للمرأة، ويقبل يدها -احتراما- صغيرة كانت أو كبيرة،
ولا سيما إذا كانت أميرة - كما هو الحال في بريطانيا مثلا-.

ومن هؤلاء "المتطرفين" تعلمنا -سادتي- أن نقول: قالت السيدة، وسافرت السيدة، وأمرت السيدة،...
يقصدون بذلك الزوجة المطاعة!! -إذا قلت: - وقولك حق- قبَّلْتُ يد السيدة الجدة، أو السيدة الوالدة، أو
السيد العالم؛ قالوا: هذه أخلاق قديمة، ذميمة، سخييفة، بالية..، وربما أضافوا: ما هذه العبودية؟ وكثير من
الفتيان توقفوا عن هذه العادة بسبب هذا الكلام العام، الذي لا خطام له ولا زمام. وكأن أزمنا اليوم فائض
الأدب، لا قلته وندرته!!.

ومما يُذكر هنا أن أستاذا عربيا -رحمه الله- زار بلاد السويد؛ فقالت له سائحة طاكسي: "أتمنى يامستير، أن
أكون عندكم أميرة!". فسألها العالم: كيف؟ قالت: "أقصد أن يكون لي ولد يقبل يدي كل صباح، كما
هي عادتكم في الشرق!!" فتأثر العالم بهذا الكلام، وازداد تعلقا بأخلاق المسلمين.

إيرادات وجوابها

وأما ما ذكره قاضي المدينة، الفقيه سيدي بكر بن زيد الحنبلي -رحمه الله - في كتابه المتين "حلية العلم" من كراهية
لحس الأيدي، وتقبيل الأكتاف، والقبض على اليمين والشمال عند المصافحة، وقول سيدي، أو مولاي
للشيخ...، فالجواب عنه - ولا مؤاخذاة-: أن اللبس يكون بإخراج اللسان، وهذا نعرفه من الحيوان، لا من

¹³⁰ وقد رأيناهم يفعلون ذلك بشكل مثير..، في ..مطار باريس، استقبالا، أو توديعا!!

الإِنسان للإِنسان! فضلا أن يُصنع هذا بعالم كريم. ولربما قصد القاضي الفقيه- رحمه الله- بذلك غلاة المتصوفة، الذين يلحسون طلبا للبركة، ولم نسمع بذلك، ولم نشاهده، ولا نعتقد. والبحث هنا عن شيخ العلم، لا عن شيخ الطريقة، أو القبيلة، أو الحومة... ولكل مقام مقال.

وأما تقبيل الأيدي أو الأكتاف، فليس مذموما على كل حال، ولا محمودا بكل حال؛ بل يكون باعتدال، ولخاصة الرجال، الذين يكرهون ذلك، وينفرون منه، ويدفعونه - ما استطاعوا- أما التمشيحون الذين يبسطون أيديهم للعوام ليقبلوها، ويتبركوا بها، وينتظرون المدح والثناء، ويتلذذون بالتعظيم، ويوالون ويعادون من أجل ذلك؛ فليسوا معنيين ألبتة بما سَبَق؛ بل يُنهي عن تقبيلهم بلا خلاف بين السادة المالكية وغيرهم، إلا لضرورة، أو مصلحة شرعية¹³¹.

● وأما ما ذكره فضيلة القاضي بكر -رحمه الله- من كراهية القبض على اليمين، باليمين والشمال، فقد فعلها سيد الوجود صلى الله عليه وسلم، مع ابن مسعود¹³². و"إذا جاء نهر الله، بطل نهر معقل" كما قال العرب.

● وأما قول التلميذ لشيخه ومربيه: سيدي، أو مولاي، من باب الأدب والتواضع؛ فذلك جائز من حيث الشرع، وإن كرهه الطبع!. والجواز لا يعني الفرضية والإلزام، كما يفهم بعض العوام. فتنبه! والشيخ سيد التلميذ- بلا منازع- أي أنه رئيسه، ومعلمه، وصاحب الفضل عليه، أحب أم كره.

إطلاق لفظ السيادة

● ولا مانع شرعا من إطلاق لفظ السيادة على من يستحقها من أهل العلم، والدين، والفضل، والنسب الشريف، كما قال الإمام الخطابي، صاحب "معالم السنن" وناهيك به من إمام حجة ثبت!

وقد جاء في صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تقولوا للمنافق سيد..."¹³³ ومفهومه كما قال العلماء: أنه يجوز أن يقال للمؤمن سيد؛ (لأنه ليس بمنافق)؛ بل ذهب بعض

¹³¹ "فإن طلب المدح من الخلق ومحبته والعقوبة على تركه لا يصلح إلا لله وحده لا شريك له"، كما قال الإمام المغربي ابن عبد البر النمري المالكي في "جامع بيان العلم".

¹³² صحيح البخاري - كتاب الاستئذان - باب المصافحة و جاء في نضه: { قال ابن مسعود: علمني النبي صلى الله عليه وسلم التشهد وكفي بين كفيه }

¹³³ صحيح الأدب المفرد 584:

العلماء إلى استحباب ذلك، من باب تكريم المؤمن، وخفض الجناح له؛ والتذلل له، بناء على عموم قوله تعالى: "وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ"¹³⁴ وقوله "أذلة على المومنين" سورة المائدة. وبذلك جرى العمل في بلاد الإسلام، دون نكير.

ومن أنكر التسويد (المقيد) وقع فيه عادة وعرفا- شعر أم لم يشعر- وخصوصا في المغرب العربي، فكل الناس هناك يقولون باللسان الدارج: سي الحبيب، وسي الطبيب، آسي منير!، آسي المدير!..
فما معنى "سي" إذا؟ طبعا معناها بالعربية سيدي.

نعم سيدي!! غاية الأمر أنها مختزلة،(مختصرة) من لفظة "سيدي"، كقول المشاركة مثلا: "سَيِّ" بمعنى: سيدي..وهكذا.

ومن منا-ياسادة- يرضى أن يُخاطب باسمه المجرد الجاف؛ حتى وإن كان أميا؛ بل جاهلا؟ من منا يكره أن يُنادى في الملا والخلاء "آسي" فلان؟!

وكان عمر بن الخطاب يقول - كما جاء في السير للذهبي-: أبو بكر سيدنا أعتق بلالا سيدنا. وروي عن ابن المديني قوله: "أمرني سيدي أحمد بن حنبل ألا أحدث إلا من كتاب". ومنه قوله صلى الله عليه وسلم للصحابة: "قوموا إلى سيدكم..."¹³⁵ يريد سعد بن معاذ، أي: أفضلكم رجلا. ومنه أيضا قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: "إن ابني هذا سيد"¹³⁶. وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "السيد الله"¹³⁷ فهذا حديث صحيح الإسناد عند المحدثين؛ ولكنه لا ينافي الأحاديث السابقة الذكر، الدالة على الجواز. ومعنى "السيد الله" - والله أعلم- أي: لا سيادة على الحقيقة والإطلاق إلا لله تعالى، وما سواه فسيادته نسبية ومحدودة. وهذا أمر مسلم، لا يختلف عليه اثنان، ولا ينتطح عليه عنزان- كما يقال - .

وما كتبه "أمير البيان" العلامة محمد البشير الإبراهيمي - يرحمه الله- في مجلة "البصائر" من كلام بديع عن "السيادة والقيادة"، وكون كلمة "سيدي" توحى بالتبعية والخنوع، وتكرس أخلاق الخدم والعبيد...وما إلى ذلك من كلام رشيد، يجاب عنه- ولا مؤاخذا- بأنه قول عالم جهبذ، لا اعتراض عليه، ولا سبيل لنقده ونقضه. ومن أكون أنا؟ وما لي ولهذا العملاق؟ إلا أنه -ببساطة- سيق في مساق مختلف-حق مختلف- لا يتعلق من قريب ولا من بعيد بموضوعنا - ولكل مقام مقال-.

وإن أردت زيادة التحقيق في مسألة السيادة؛ فارجع إلى الكتاب القيم، لابن القيم: "بدائع الفوائد".

¹³⁴ سورة الحجر الآية : 88

¹³⁵ رواه البخاري في صحيحه رقم 2878

¹³⁶ هذا الحديث متواتر عند جمهور المسلمين فقد رواه البخاري في صحيحه رقم 2557، ورواه أحمد في مسنده، و الترمذي في سننه، والنسائي في الكبرى، والبيهقي

في سننه، والبخاري في مسنده، والطبراني في معاجمه، وابن حبان في صحيحه، والحميدي في مسنده، والطيالسي في مسنده، وابن أبي شيبة في المصنف ..

¹³⁷ روه أبو داود رقم 4806 والنسائي رقم 10074 وأحمد رقم 16711 من حديث عبد الله بن الشخير

- وأما قولهم: مولانا الشيخ؛ أو مولاي الشيخ، أو مولاي الشريف؛ فهو أيضا كلام سليم، لا غبار عليه، ولا يعترض عليه حتى من دأبهم التدقيق في مثل هذا.. وقد سمعنا كبار علماء "مدرسة الحديث" في هذا العصر يقولون: مولانا الشيخ، مولانا العالم، ولم يعترض عليهم معترض.

وما يقال في السيادة يقال في "المؤلوية". فلا مولوية على الإطلاق إلا لله تعالى، بإجماع المسلمين، وما سواها فمولويته نسبية، ومقيدة، ومحدودة. وهذا واضح.¹³⁸

بيان واعتذار

وكل ما ذكرناه ههنا لفظا وحرفا، توضيحا على كلام العلامة القاضي بكر، رحمه الله، قد قال لبه وأصله بالمعنى، بلديّه وعصريّه الفقيه النحوي الحنبلي، الصالح الولي -إن شاء الله- سيدي ابن عثيمين البريدي- نفعنا الله بعلومه- في شرحه وتعليقه على كتاب "الحلية" مع زيادة بيان، وحجة وبرهان. وأين القطرة من البحر؟! والثرى من الثريا؟! ومن مثل الفقيه النبيه -رحمه الله- في تحقيقه وتعليقه، وعلمه وحلمه؟! وليت كل أتباعه عرفوا سيرته ومسيرته، ونهجوا نهجه في الرفق بالخلق، والاعتراف بالحق!! **ولكل عالم هفوة، ولكل جواد كبوة!**

- والعلماء العاملون أهل سماحة وسماح، وتطاول و"انفتاح"، لا يغضبون لأنفسهم، ولا يشغلون الناس بذواتهم الفانية، وهمومهم الشخصية، إلا عند اللزوم. شعارهم: **تصدق بعرضك ليوم ففرك** ولكنهم-والحق يقال- يتحسّرون سرا على ما يُقابلون به من جفوة وجحود من طرف العامة أو الخاصة، ومنهم الفقيه المذكور، ابن عثيمين- يرحمه الله- الذي صرح بذلك ولمّح في دروسه المكية، ولم يجد آذانا صاغية، وقلوبا واعية، فاللهم تجاوز عن تقصيرنا في حق علمائنا، وعوضهم برضاك عنهم، آمين

أمثلة رقيقة في إجلال أكابرنا لبعضهم البعض

ولقد كان ابن عباس -رضي الله عنهما- مع جلاله قدره وعلو مرتبته في العلم والشرف، يُجل زيد بن ثابت ويأخذ بركابه، فقال له زيد بن ثابت: **خَلَّ عنها يابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال ابن عباس: هكذا نفعل بالعلماء والكُبراء، فقبل زيد بن ثابت يده، و قال هكذا نفعل بأهل بيت نبينا صلى الله عليه و سلم**¹³⁹

¹³⁸ وفي جميع الأحوال، فالأول في معاملة العلماء -كما سيأتي بيانه- التوسط والاعتدال، والتعبير عن الحبة بالأفعال. و"حسب العالم أن يكون وجيها عند الله وفي الآخرة" -كما كان يردد الإمام الفقيه أبو زهرة -رحمه الله- وصدق الله "وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَقْلًا تَعْقِلُونَ".

¹³⁹ جامع بيان العلم لابن عبد البر(456/1).

قلت: ما أجمل هذا المشهد! وما أعظم هذا المثل!! فصلى الله على المعلم المري، محمد بن عبد المطلب!! صلى الله عليك يا رسول الله!!

وكان الإمام أحمد متكئا من علة فذكر عنده إبراهيم ابن طهمان فاستوى جالسا وقال: لا ينبغي أن نذكر الصالحين فنتكىء!

وكان عطاء بن رباح إذا حدث عن شيخه ابن عباس رضي الله عنهما قال: "حدثنا البحر" وجاء في كتاب الجرح والتعديل، قال أبو حاتم الرازي: "ما رأيت أحدا أعظم قدرا من أبي مسهر، كنت أراه إذا خرج إلى المسجد، اصطف الناس يسلمون عليه، ويقبلون يده"¹⁴⁰.

ويُروى أن سهل بن عبد الله التستري دخل ذات يوم على أبي داود السجستاني، صاحب "السنن" - وكان سهل هذا - نفعنا الله به - من أرباب القلوب الحية، والأحوال الصادقة مع الله - فقال يا أبا داود: **أريدك في طلب تلبيه لي، قال: ما هو: قال أن تخرج لسانك، أقبله، لأنه طالما قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . فتمنّع أبو داود... وما كان له إلا أن يتمنع.**

وهذا الإمام مسلم، يقول لأستاذه الإمام البخاري الجعفي، كما جاء في سير أعلام النبلاء: "**دعني أقبل رجلك، يا أستاذ الأستاذين، وطيب الحديث في علله، أشهد أن الدنيا لم تر مثلك اليوم**"¹⁴¹.

ولا يُتصوّر أن البخاري قبل ذلك، أو ارتضاه. معاذ الله! والذي يعنيننا هنا هو تواضع مسلم، وأدبه، ووفاءه، واعترافه بفضل أستاذه البخاري، على حد قول الشاعر:

كأني إذ أوالي لثم راحته عجزت عن شكره حتى سددت فمي

وقال شاعر محب :

قبل يد الخيرة أهل التقى ولا تخف طعن أعاديهم
ريحانة الرحمن عباده وشمها لثم أياديهم

وقال إبراهيم بن الأشعث: "**رأيت سفيان بن عيينة يقبل يد الفضيل مرتين**"¹⁴² وعن عاصم بن أبي النجود المقرئ - شيخ حفص - قال: "**ما قدمت على أبي وائل من سفر إلا قبل كفي**" كما جاء في سير أعلام النبلاء للذهبي¹⁴³.

- وكان إمامنا مالك - رحمه الله - مضرب الأمثال في الوفاء لشيوعه، والتأدب معهم، كما جاء في كتب السير. فعندما كف بصر أستاذه نافع المدني، المقرئ، الحجّة، الأترجة، رحمه الله، كان

¹⁴⁰ ج6ص:29

¹⁴¹ سير أعلام النبلاء ج12 ص432

¹⁴² المرجع السابق ج8 ص: 438

¹⁴³ المرجع السابق ج 5 ص: 257

مالك - رحمه الله - يتشرف بقيادته من منزله بالبيع إلى المسجد النبوي. وكانت حلقة مالك في الحديث والفقهاء بحوار حلقة نافع في القراءة، مما أتاح الفرصة لكثير من الطلاب أن يستفيدوا من الحلقتين، وأن يجمعوا بين فقه مالك، وقراءة نافع¹⁴⁴. وكان مالك يعترف لشيخه نافع بالإمامة في القراءة، ولا يتقدم بين يديه في هذا العلم - أدبا وإجلالا - حتى وإن خالفه في بعض الاجتهادات والمسائل. وإذا سئل في القراءة يقول: "سلوا نافعا، كل علم يسأل عنه أهله" وقابله الإمام المقرئ نافع بأدب مثله، أو أحسن منه، فكان يزجر تلميذه في الحلقة، إذا رفع الصوت بالقراءة والسؤال، ويقول: "أما ترى مالكا؟ أو ما ترى مالكا؟...."¹⁴⁵.

- وجاء في "الجواهر والدرر، في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر". للسخاوي: "وتراه (أي ابن حجر) يهش في وجه من يأتيه أو يستقدمه من الشيوخ والمحدثين ليأخذ عنه، ويكرمه ويجلسه على بساطه الذي يصلي عليه... أو يخرج مسرعا لتلقيه على الباب، مرحبا به، ولربما قبل يد أحدهم في بعض الأحيان إذا لقيه... ويعود من ألم به مرض منهم، وقد يرقيه بالمأثور من السنة، فيكتب الله الشفاء على يديه." وجاء في "شذرات الذهب" نقلا عن كتاب: "الحافظ ابن حجر" لعبد الستار الشيخ: "بل إنه كان يرعاهم بعد موتهم في ذرياتهم"
- قلت: رحم الله الحافظ ابن حجر، الذي لم يكتسب هذا الأدب الراقي، والذوق الرفيع، إلا من تحمّل الحديث وحفظه، ومشامّة أهله ورجاله.

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

"وكان الشيخ العلامة الشربيني (شيخ الجامع الأزهر المعروف)، يدخل مع الطلبة على الشيخ العلامة الأشموني؛ حتى يقبل يده، تقديرا لعلمه وفضله"¹⁴⁶.

- وكان العلماء - ولا يزالون - يكرهون التقدم بين يدي شيوخهم، ومن هو أسن منهم، وأولى بالحديث - إلا بأمر أو إذن - فإذا دخل عليهم وهم يفتون، أو يعظون، أو يدرسون، أرتج عليهم، وقطعوا الحديث، أو اختصروه - احتراما وتقديرا - وربما أجلسوه مكانهم، وقعدوا منه قعدة المتعلم!. فإن فاتهم ذلك، أو استكبرها عليه؛ لسبب أو لآخر؛ كرروا الاعتذار، وتأسفوا،

¹⁴⁴ وسبحان الله وبحمده، فلا يزال التلازم بين قراءة نافع ومذهب مالك قائما في أفريقيا لحد الآن، وبالأخص في المغرب العربي.

¹⁴⁵ وقفت على هذه الآثار في مطبوعات ندوة الإمام مالك (منشورات وزارة الأوقاف المغربية).

¹⁴⁶ "رجال من التاريخ". الشيخ علي الطنطاوي

وسألوا أكابرهم الصفح والعفو. ولا يزيدهم هذا كله أو بعضه إلا رفعة ومكانة في قلوب الخلق؛
 مصداقا لقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم: " ما تواضع أحد لله إلا رفعة"¹⁴⁷
 ومن أقوالهم الصادقة في ذلك: "إذا حضر الماء ارتفع التيمم" أو "ظهر الصباح فأطفئ القنديلا".
 يقول الإمام يحيى بن معين رحمه الله: "إذا رأيتني أحدث ببلد فيها مثل أبي مسهر فينبغي للحيتي أن تخلق". وقال
 أيضا: "الذي يحدث ببلد به من هو أولى بالتحديث منه أحق".
 وقال أبو عمر الخفاف عن البخاري: "لو دخل من هذا الباب وأنا أحدث؛ ملئت رعبا، ومن قال فيه شيئا فعليه
 مني ألف لعنة!"¹⁴⁸ وقال سفيان الثوري لسفيان بن عيينة: مالك لا تحدث؟ فقال: أما أنت حي فلا!!¹⁴⁹.

ذكريات وعبر (جموح قلم، وزفرات ألم)

وكان طالب القرويين، أو الزيتونة، أو الأزهر، إذا عاد إلى بلده، يخرج إليه الناس عن بكرة أبيهم، يستقبلونه في
 ضواحي المدينة، أو القرية، ويلتزمونهم، ويقبلونه، ويشمون فيه عقب القرآن، وشذا الإيمان¹⁵⁰، ويكون هو المقدم
 والحكم بينهم في المنازعات والمرافعات. راضين بذلك مختارين. لأنهم يتصورون أنه يمثل الخلق القرآني، والعدل
 الرباني، وليس نفسه أو عشيرته، أو ذوقه وهواه. ولولا الدين الذي يحمله، ما عبؤوا به وبأمثاله.. أبدا أبدا. وصدق
 رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: "إن الله ليرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين."¹⁵¹
 ولا يزال كاتب هذه السطور - غفر الله له - يذكر كيف كان الأهالي في بلده (غمارة) يستقبلون الأشراف، وطلبة
 العلم، في رحلتهم السنوية، في جو مهيب، ومشهد عجيب، تخشع منه القلوب، وتذرف منه العيون.!! ورأى
 كيف كان هؤلاء الكرام يجلون شيوخهم وأساتيدهم، ويتعهدونهم بالزيارات والهبات، والدعوات، والخطابات..

¹⁴⁷ رواه مسلم رقم 5528. وظاهر الحديث يعني الرفعة في الدنيا والآخرة

¹⁴⁸ مقدمة فتح الباري، ص: 485

¹⁴⁹ قال مقبده - عفا الله عنه - وقد رأيت في شبابي أستاذا يتكلم في الناس، ويجيب عن أسئلة الجمهور؛ ثم تأمل الوجه؛ فرمق أحد الشيوخ المعروفين؛ فناده، وقدمه،
 ورحب به، وجلس يستمع كواحد من تلاميذه؛ فلما نطق الشيخ أهر العقول، وأسى القلوب...!!
 وتكرر هذا المشهد عندي في أيام الشباب مرات ومرات، فزادني إيمانا وتسليما بأن الكتب وحدها لا تربي ولا تؤدب، لأنها بكما لا تنطق، وصماء لا تسمع، وعمياء لا
 ترى. خلافا للمعلم الناصح، الذي يربيك بلفظه ولحظه، وصمته، وسمته..
 ومن عرف الشيخ محمد الحسن الشنقيطي الددو المالكي، أو استمع إليه، أو قرأ له؛ أو أخذ عنه؛ أدرك - لا محالة - أن الرجل أعجوبة الزمان في المنقول والمعقول. ومع
 ذلك، فإنه يرفض الكلام أمام شيوخه ومريبيه، حتى وإن كانوا دونه بمراحل في العلم، ويرى أن التقدم بين أيديهم من علائم الخذلان، وفساد الزمان. بل إنه - وفقه الله -
 يوقر العلماء والصلحاء عامة، ويقبل جباههم - إن اقتضى الحال ذلك - كما ذكر العارفون بأحواله.

وحدثنا من يُقطع بصدقه، أنه شاهد المحدث الشريف سيدي عبد العزيز بن الصديق، يهوي بالتقبيل على رأس الأستاذ الكبير العلامة، مولاي مصطفى البيحايوي
 المراكشي، نزيل طنجة، بعد أن شاهد من معارفه ولطائفه ما غمره وبهره، (في درس البخاري بمسجد العمرة). وكان ذلك على مرأى ومسمع من الناس، في جو خاشع
 ماتع، لا ينسأه أهل طنجة. كل هذا والأستاذ يتصبب عرقا، ويقطر حجلا، ويرى أنه أقل من أن يفعل به ذلك، ولا سيما من شيخ كبير، راسخ في العلم والنسب.
 وكان هذا التقبيل من الشيخ عبد العزيز. كما يرى البعض. بمنزلة إجازة للأستاذ مصطفى، لاح بعدها نجمه، وانتشر خيره، وفاح عطره!.

¹⁵⁰ ولا سيما أهل الشام، وقد استقبلوا المحدث الشيخ أحمد بن الصديق الغماري، رحمه الله، على بعد نحو أربعين كيلو، وأخذوا عنه الإجازات، والمسلسلات

بالرحمة، والمصافحة والمشاكلة، من المفتي إلى أصغر عالم، وطلبوا منه الخطبة يوم الجمعة بأعظم مساجدهم... (در الغمام الرقيق للتليدي ص: 190).

¹⁵¹ صحيح مسلم رقم 1626. (يرفع بهذا الكتاب): أي بقراءته والعمل به (ويضع به): أي بالإعراض عنه وترك العمل بمقتضاه

ويعتنون بهم في مرضهم وشيخوختهم؛ طمعا في نيل بركاتهم، ودعواتهم الصالحة. وقد كانوا صالحين حقا حقا، وربانيين صدقا صدقا -رغم زلات البشر- أفنوا أعمارهم في التعليم والتذكير، ورضوا من الدنيا باليسير، وهابوا الله فهابهم الخلق، وأحبوه فأحبتهم القلوب.

أرى آثارهم فأذوب شوقا وأسكب في موطنهم دموعي
واسأل من بفرقتهم بلاني أن يمن علي منهم بالرجوع

وأنظر اليوم في "عمارتي" فأسمع حسيسا، ولا أرى أنيسا! كما قال الإمام الحسن البصري، رحمه الله. نعم، لقد تنكرت لي الأرض -ياسادة- هناك فما هي بالتي أعرف!! تغيير كل شيء... البشر، والشجر، والحجر... تغيرت أخلاقيات المعلم والمتعلم، والبائع والمشتري، والحاكم والمحكوم، والإمام والمأموم..! تغيرت الاهتمامات، والتوجهات... وانعكست الأولويات..

يا الله! ما الذي حدث؟ أين طلبة العلم؟ بل أين أخلاقهم، وسمتهم؟ أين تواضعهم ولينهم؟ أين وفاؤهم وصفائهم؟ أين اللُحمة والرحمة؟ أين الكرم والجود؟ أين أصوات القرآن، ودويته في كل مكان؟ أين العبقرية والنبوغ؟ أين الهمة والطموح؟ أين أين؟

ولعل الله تعالى -سادتي- يحيي هذه الأرض بعد موتها... وهو سبحانه المحيي المميت، المعطي المانع، اللطيف الخبير. وهي -كما أعلم- أرض مباركة معطاءة، ولوؤد ودوؤد... عاش في كنفها العلماء والأولياء، وخصوا أهلها بالدعاء. ولن يخيب الله أهلها -مهما زلوا وغفلوا- كما يشهد التاريخ.

هي أرض تجكان... التي انتشر ذكرها في الآفاق، ودخل فضلها على الناس من كل باب وطاق!. هي أرض العلامة الفقيه القاضي أحمد بن عرضون، والفقيه المفسر القسطلي، والإمام المصلح الهبطي، والفقيه العلامة الفوال، والفقيه القاضي الخريم، والإخوة العلماء (السبعة) الصديقين المحدثين!! والفقهاء التجكانيين المصلحين...

هي أرض العبد الصالح، والعالم الفالح، سيدي العياشي أعراب. رحمه الله. هي أرض الداعية النصيح، والمربي النجیح، سيدي أحمد الفلالي (الأزهري) رحمه الله، والشرفاء الميمونيين، القرآنيين.. وغيرهم من الأشراف الطيبين، والرجال الصالحين... هي أرض من لا أرض له، ودار من لا دار له من الغرباء والنزلاء.. هي أرض الأمازيغ والعرب، الإخوة الأشقاء، والأصهار الأحباء...!!

أحبك يا غمارة!

أحبك يا منبت غرسي، ومسقط رأسي.. ومهوى فؤادي، وأرض أجدادي... وأحن إلى برك وبحرك، وباديتك وحاضرتك، وشعابك ووديانك.. وعالمك ومتعلمك، وصغيرك وكبيرك...

أحبك، كما أحب كل بلاد الله في الشرق والغرب - بلا تعصب - وأرجو أن يكون لك - دائما - من اسمك نصيب... مغمورة - إن شاء الله - بالعلم والفضل...، نضاحة بالخير والعطاء...وفية لماضيك التليد، وموعذك الجديد، مع وفرة في الخيرات، وتقلب في البركات...!!.. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تبصرة وخاتمة:

قد يستغرب بعض أبنائنا اليوم من هذه الصورة الوردية التي رسمها الإسلام، لعلاقة المتعلم بالمعلم، ولا سيما في البلاد الغربية، وربما يرون ذلك أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع، ولعل عذرهم في ذلك: ما تشهده المؤسسات التعليمية المعاصرة من واقع متغير جديد...، لا يسر عاقلا؛ نتيجة ما أشرنا إليه في السابق من طغيان المادة، وانحيار القيم. ومن ثمَّ يكثر التمرد والعصيان، والميوعة والتسيب، وترتفع معدلات جرائم العنف والثأر داخل المدارس العامة والخاصة على السواء، ويقف الجميع عاجزا مشدوها أمام هذه الظاهرة الغربية، التي لم يعرفها تاريخنا الثقافي والعلمي؛ نتيجة ما ذكرناه من العلاقة الروحية الودية بين العالم والمتعلم، والمربي والمتربي، المحلاة بزينة الصفو والوقار، المقتبسة من مشكاة النبوة.

فهل تعود هذه الأخلاقيات و"المثاليات" اليوم إلى حرم المدارس والمعاهد والمساجد؟ أم هل يعود معشارها على الأقل؟

"ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟"

ماهي أسباب سقوط هيبة المعلم في هذا العصر؟ لماذا تراجع مكانته؟

ماذا يقول المتخصصون والدارسون؟

ماذا تقول الأرقام والإحصائيات؟

كيف ينظر غيرنا إلى هذا الموضوع الجلل؟

من أين أتى الخلل؟

وماذا يمكن للمسلمين أن يقدموه للبشرية في هذا المجال؟

هذه تساؤلات وإشكالات يتناولها المقال القادم إن شاء الله. بشيء من التفصيل...-إذا دعت الحاجة إليه- وندعوكم إلى إثرائنا بأرائكم، وانتقاداتكم، وتصويباتكم..

:"رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا... فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ

الْجَحِيمِ..."¹⁵². آمين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه -على خجل- الراجي دعواتكم : الفقير إلى عفو الله: ، أحمد بن علي الهبطي الغماري أبوخالد . (نزيل

الديار الأوروبية). غفر الله له ولوالديه ، وللمريه، ولسائر أحبابه.!!!!!!

¹⁵² سورة غافر الآية : 7

